حصاد الورد ،،

المملكه الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدي دائرة المكتبة الوطنية
(2022/1/514)

819.9

الكيالي، ريم رياض «محمد بديع»

حَصاد الوَرد /ريم رياض «محمد بديع» الكيالي - عمان: المؤلف 2022

( ) ص.

ر.إ.: 2022/1/514.

الواصفات: / النصوص الأدبية / /الادب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤوليه القانونية عن محتوي مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكوميه اخري.

حصاد الورد ،،

ريم الكيالي ·

٢٠٢٢م

بدء

بالرَسمِ بالتَلوينِ ، بالنَقشِ بالفِكرة ..
بالقِصَّةِ و القَصيدَةِ ، بالحُبِّ و الفِطرة ؛
نُحبُّكِ يا فلسطين .

"

تَنويه

جميع الصور الموجودة في الكِتاب هي صور واقعية لأحداثٍ حقيقيّة مما خلَّفته الحرب ليكونَ الشتات الفلسطيني ، التُقطَت بعدسة مصورين و حُفظَت في ملفات الأونورا و مَنعَ عَرضَها حَتى تاريخ الحصول عليها لتكون مُتاحة بين يديكم اليوم ..

شُكرٌ كَبيرٌ للروائي «مُراد سارة» الذي زَودني بالصُوَر و أطلقني حُرَّة كَي أغوصَ في مكنونِ أبعادِ الحكاياتِ و لأعيشَ في عيونِ أصحابها ..

شُكرٌ جَزيل للدكتور «خلف القيسي» على تدقيق الكِتاب و دَعمه الجميل لِقلمي.

امتنانٌ لريشَة الفَنان الأردني القَدير رائد قَطناني على لوحته الجميلة والتي كانت غِلاف الكِتابْ .

إهداء

إلى الذين التَقطَهم عَدسَةُ المصَّور من زاويَة الشَتات ،
الذين لَم يُكلِّفوا أنفسهم عناءِ مَسح الطين من أكفَّهمْ !
إلى الذينَ أبدعوا للخُلود مَعناهُ ، و قيَّدوا الحَنين ضمن إطار ..
و إليه ؛ الذي أبدعَ تَحميض الفِكرَة لِتَشهَدَ على الوَاقِع رُغمَ لونَين .
لَكم منَّا الرياحينَ تُضيءُ شحوبَكم ، تَعتَليْ جِباه التَعَب فيكم ، و تَستريحُ .
لَو تَقبَلونَ منَّا العَودَة مَوْسُومَةً بالنَصرِ .. على عَجلٍ .. نأتي كَي نُلَّبيكُمْ ،
لَم نكُن لِنَنسَى تَلوينَكُم .. أبداً ، أردَنا مسَح الدَمْعَة عَن أعينكُم ..
فأنكَشفَنا على الحُزنِ من خَلفِ حِجابْ ، و نَزفنا مِلءَ الرِئتَينْ !

ريم الكيالي

حَصَاد الوَرد

أنا طِفلَةٌ من وَرد ، شَجَرتي تُمارِسُ الصُعود نحوَ الشمس ، لا تميلُ صَوب العتم .. لا يَحجُبها غَيمٌ ، تَتدَّلى النُجومُ كَي تَزيدها وَسامة ، أما القمَر فَيخجَل أن يَبدي في حُضورها أدَنى ابتسامَة .. أنا طِفلَةٌ وردَة ، لِيْ بَتلاتٌ من نُور ، و فَساتيني تُراقصها الريح و تَطربْ .. نَظرَتي شُموخٌ و لَونيْ دَلال ، أرضِيْ تُربَة سارَ عليها الأنبياء ، و ماءُ سُقيايَ دُموع !

أَتَوْا يُمطُرونَ مُبيدهم الناريَّ فوقَ رأسِيْ ، فانصهرت احلاميْ ! ، جاؤوا مُدَّجَجينَ بالثقَل يحملون الكواكبَ ضِدِّي ، و انا في مَهَب صراعَهُم غصنٌ أخضَر يتمايَلُ و لا يَسقُطْ ! ، كَسروا عُنقيْ و لَا زِلتُ أتنفَّسْ ، رأوا بُرعماً اخبئوهُ في جَيبي ، فقاصَصونيْ بتقليم أصابِعيْ .. عَجزتُ عَن حَمْل الأقَاح فَوزَّعتُ عطريْ و غَنيَّتْ ، .. طَعنوا قَلبيْ بسكين و تُهمَة ، عاثوا في أضلاعيْ قَطفاً و قَصفاً .. ، أزهرتُ رغماً عَنهُمْ ، فَجُرحيْ يَطرَحُ الجُوريْ الأحمَرْ .

حِصَارهُم بِشائكٍ و سِياج لنْ يَحنيَ من همَّتيْ ، فأنا أكبُر كُلَّما انسابَ دَمعي ، أتّجَذَرُ في كَبدِ الأرض .. أتغَلغَلُ و أسمو نحوَ السَماء ، أنفضُ عَن أوراقيْ غُبار الغارَة و أُينِع بالأخضَر و شراييني ، بريقُ عينيَّ لا يَشيخُ ، و ذَهبُ تفاصيلي لا يَصدأ ، و تاريخيْ ؛ وَسمٌ أقبِضُ عليه في قَلبي كَي أحميه .. أحفرُ أسماءَكُم فيه ، و أبرعِمُ مِراراً .. مَهماَ تحدانيْ حَصادَهُمْ .

فلسطينْ ،،

اسمُها المُخمَليُّ يؤديني حُباً لأقاسِمُها السردَ على عاتقِ العاشقينْ ، و أجمَعَني بها على هامشِ نداءٍ و وَصيَّة ، أهمي لأخطفَ من عطرها أكسجيني المُعتّق بشَهيقٍ يليقُ بِحجمِ الأنينْ .. حُبُّهَا قُبلَةٌ دافِئَة تَنطَبِعُ على خَديَّ بِخَجَلٍ خبأتهُ في تَرَدُدي ، و أنا أحيِّ من بَعيدٍ خافِقَها و أنشدَ ما تبيَّنَ ناصعاً على سَطرِ أغنيَتُها في أبجَديَّتيْ ، أغزِلُ من عينيَّ فراشَتين ، و ألاحِقَ طَيفَ أطفالَها و ظِلالِ الجَدِ الغافيْ تحتَ غصنِ التين ، أدورُ حولَها لا تحدُّ رفعَتيْ سَماءْ .. و أختطِفُ من الملائكَةِ رؤى أثقَل من أجنحَتهِمْ ..

الأحمَرُ القاتمُّ يَنهَزِمُ أمامَ مراياي ، يوَّترُ نبضيْ .. و السياجُ المزنجَرُ بالنارِ يُخيفُني .. ، يؤرقُ حُلميْ بالربيع .. يَجرَحُني الحُزنُ بأمرٍ غُربَةٍ ، أبكيْ .. فمنذُ ناديتُ فيكم لعُرسيْ ؛ لم يُجبني الحنينْ !

في خافِقي انحناءٌ مُتأزِمٌ ، يصرخُ قُربَ الهمسِ و يُمارِسُ الجُنونُ ليغتالَنيْ بأمرٍ غارَة ! و يداي تُعانيْ من خَطبٍ كأنَّ العصبَ مُتخَثرٌ ، يودُّ لَو يَفُكَ الشريانِ المُعقَد قَبلَ أن ينفجِرَ ؛ أخضَرْ ..! ، يَخطفُني المَشهَدْ ، و أكتبُ بأصابعيْ المُتبقيَّة على بابِ اللجُوءِ ؛ « يوماً مَا .. سأعودْ «.

أوَدُّ احتباسَ الصَدى في كَفي و أنغَلِقْ ، أنكمشُ قُربَ الروايَةِ كَي أسمَع توثيقَ التاريخ الذي لم يُنصف عُمريْ ، أوَدُّ لَو تتفتَّحُ خلفَ أذني وردَةٌ بَنفسَجيَةٌ من زُخرفَةٍ حيَّةٍ لا سكونْ .. أمَسِّدُ لتفتُحَها تَرنيمَةً و أسألُ ربَّ الوُرُودِ ؛ ابدَعتها في أرضنَا جَنَّةً ، جَسِّدها في رُؤانا.. ، و يا رَبّ سَلِّمْ زَيتونَ بَساتيننا ، اجمَع أضلاعنا المُطفأة ، كحِّل بالفَرحِ عُيونَ طِفلَتنا .. قُلْ لِسلمنا ؛ كُن فَيكونْ .

كَتبت بأصابعها الصَغيرة حروفَ قَصيدتها الحَزينة ، اختارَت من الكلماتِ أجملَها ، من الصُوَرِ أبعَدها .. و طَرزَّتها بإمضاءَةٍ هي بَصمةٌ مغموسَةٌ بالدَّم ! ، عناوينُ الوصولِ مُبهَمةٌ .. لا اتجاهاتُ الفصولِ تُجيبُها و لا شَمسُ البِلادِ التي اختبأت خلفَ رمادِ الغارَةِ الأولى .. نَطَقْ!

هِي لَم تزَل تكتُب .. على باقِي الصَفحاتِ قِصَّتها ، ليسَت تُجيدُ العَزفَ و لا الغِناءَ ، إنما الصُراخَ في وَجهِ الصَدى .. هِي لا تزالُ تنسجُ من شِباكِ الدَربِ أُحجيَّةً ، تُصَلي كَي يرُدَّ السلمُ بِشارَتهُ و تلَّوحُ في أفقِها بأعلامهِ بَراءَة .. لكنْ ؛ وَحدهَ الشائكُ من عِباراتِ الوُجومِ ، تكاتَفَ كَي يقوِّمَ اختطافَها .. ، و قَد أفادَ مَصدَرٌ إخباريٌّ بأنهُ قَد يَحدُث مِراراً ما يؤدِيْ إلى .. حِصارِهَا و حَصادِهَا !

هِي ابنَةُ شَجرِ البرتقالِ المُثقَلِ بالنوَّارِ الأبيضِ .. الذي همسَ للخريفِ الآتي بأمنيَّة لَم تَكتمِلْ ، و حَفيدَةُ المَكيدةِ الكُبرَى التي اعتَّلت تَنهيدَتها بِلا حَولٍ و لا قوَّة ! ، يا نَسمَةً مُريٍّ على جَبهَةِ الطِفلَةِ بحُنْوٍ .. و اتقِ شرَّ صَيادِي الفَرحِ و قناصِيْ البَسمة ! باغِثي رَوعَهَا يا غَيمَةً ورديَّةَ الأطرافِ خَجلَى بالأزرَقِ الناعِمِ محفوفَةٌ ، لا بالخَطر .. مَطرَ النارِ الذي أخافَها و جمَّدَ أقمارَها .. و اخمِدِ الدمعَ الذي انهمَرَ مُقدماً إيَّاها صيغَةً مُختَطَفةً باسمِ المرارَةِ ، و إنَهُ إثرَ الغُبارِ .. الحُزنُ في أطرافِها .. اشتعلْ !

من أينَ الخروجِ ؟

لا مفرَّ من نُزوحٍ قُربَ ملجأ ذِكرياتٍ من رمادٍ ، و مَجال ما تبقَّى من جُدرانٍ مَغزولَةٍ بالعَتمِ ، ما عادت تَسنِدُ الرؤى و لا تحتضِنُ

الضَجَر ! هذه الدروبُ مسَارنا و تلكَ النوافذُ .. بابُنَا ، و ليسَ ذاك المُعتَقلْ ! تلكَ الندوبُ فينا وَسمَ شموخٍ ، قُلِّدنا إياهَا ذَهبيَّةً ، يومَ بَددنا الحُفَرْ !

أين الدخولُ ؟

تلكَ الحُدود واهِمَة ، مَفاتيحُ الوصولِ طالهَا الصَدأ ، أينَ مفاتيحُ البيوتِ الصامِدَة؟، و منارة ما هَدى النيزكَ المَكسورَ ؟ ، أينَ نورُ اللّٰه يحملُ عَني عَتمتيْ و يحملُنيْ ..؟ ، هذا الصراطُ مُجَعَّدٌ أم أنني ضيَّعتُ إيمانيَ بإيجادِ ألعابيْ !؟ .. كُلَّما سألتُ .. تآكَلَت حُروفيْ و تَصَّدَعت رأسيْ ، طُمِرَتُ وَ سيرَتيْ كَأوراقِ الخريفِ اليابِسَة!؟

لا بُدَّ من ملحِ العُيونِ اللاذِع ؛ ليعودَ لونُ الكونِ في ألَقٍ ، و لإجتيازِ هذا العجزِ سأصطَحِبُ الوردَ لأذَيْلَ إنفجارِها !! لتعودَ سبائك الفِضَّةِ تَطفو كهالَةٍ فوقَ رأسِها لا يَخشاها سَبَبْ .. و تحُطَّ في رُكنها تَتمَةَ قَصيدتها الطَويلَة و الجميلَة .. التي بدأتها لَيلَ سامَرها الأرَقُ ، لا تَحدُّ لُغَاتَها دَساتيرٌ ، و لا صَوتُ يُؤهِلُ صَحو عَصافيرِها أو شَغبْ.

عيناكِ فاتحَةُ الروايَة ، و رؤاكِ مفتاحُ السَلامْ ، مُتَشحَةٌ بالتُرابِ يديكِ .. لكنَّكِ تُلَوحينِ بِكُلِّ ما أُتيتِ من قَبضَةٍ .. إلى تلكَ الرياحْ ! ناديتِ يومَ الصَمِّ بالأسماءِ جَميعهَا ، لَم يَرُدَّ الصَدى أغنيَتَكِ ؛ خَجلاً .. من سَمعكِ المُضطَربِ بصواعِقِ الغَاراتْ !

لوجهكِ المُتَدَّثِرِ بَخيبَةٍ أكبرَ من مقاسِ الحربِ ، يا جَبينَها الذي وثَّقَ ذُهولَ التعبِ على سُطورٍ من الخَوفِ و سَطَّرنا عبَرْ .. كُن عَالياً رُغمَ شُحوبِكَ ، لامِعاً كَي تُوثَّقَ الميعادِ ، تَمَدَّدْ مهمَا أثقَلتكَ الصُوَرْ ..

عن انتماءِ الأخضَرِ في سِلالِكِ يا جَميلة ، يَعجَزُ اللبلابُ عَن رقصته و يتجَّعَد لو سَوَّرَ حُجراتِ قلبِك أو مالَ نحوَ الشَمس ، فكيفَ لَو أودَعت الياسَمينِ جيوبَكِ الغَنيَّةَ من الفَقرِ .. لَتَنَامَى للسمَاءِ و بَنَى أُرجوحَة من أغصانِه .. وَتمادَى .. على فراغِ ما حاصَر واقِعكْ ..

يا عصفورَةً سَقَطت على حَدِّ اللجوءِ ، أنهكَتها الحِكايَةُ و السَفَرْ ، لم تجد ألوانَ حُبٍّ في مقلَمتها تَكفيْ لتَبني بَيتاً في الدفاترْ ، مُري على عِنواننا المَنسيِّ لَو غَلبكِ الحَنينْ .. استَريحي فوقَ العُشبِ الذي تركَ الأثَر خلفَ رَحيلنا ، و أذكُرينا يومَ تُنسَى سيرَةُ الأوَلينْ .. خَبري عَنَّا بأنَّ الوردَ سيُزهِرُ ها هُنا .. و يَرتَفِعُ .

خُطوَتُكِ يا ابنَةَ الوَطنِ ؛ صَغيرة ، ضاقَت بها الأغلالُ .. شَلتها السَلاسلْ ، لكنَّ في الأرضِ خطوطَ بذورٍ سَتكبُرُ لَو نَطقت باسمك فوقَ الحَجرِ ، حَيَّتكِ السَنابلْ و أطلَقت شَغفها ضدَّ تعاليمِ الإجتياحِ و سَوّرتك .. خُطّيْ بأمرِ الوردِ بَهجَتَكِ و أرقصيْ على إيقاعِ.. لا تتعَثَري بالمَوتِ ؛ سيري بعونِ اللّه ، عينُ السَماءِ تحرُسك .. في نهايَةِ الخَّط .. تَنْتَظرُك يَدُ المَلاك .. لا المَصائدْ !! و لا تُغلقي عينيكِ .. عَيناكِ فاتِحَةُ الرُوايَةِ .. و رُؤاكِ مِفتاحُ السَلامْ .

نادَاني فيكِ اللونُ كَي أكتُب .. عَن عينينِ لَم يسَعهُمُا الأسوَد، فانهَزَمْ ! شَدّني ذُهولُ عَينيكِ ، اتجاهُ خُطاكِ .. وكُحّلي الوُجودْ .. فما بالُ رصاصيُ قَلميْ قَد كَتبْ!

نذَرتُ عُمري لَو ألَوِّنَ رؤاكِ و أرسُمكِ على سَطري حكايَة تَفُوقُ الأُمنيَّة ، تَليقُ بِمسارِ الضُوءِ المُتوهِجِ فيكِ .. تُؤتيكِ بَسمَلةَ البِدايَةِ ، كَي أضُمَكِ يا صَغيرة .

يا وردَةً خَرجَت بِفَصلِ البَردِ من خاصِرةِ الأنينِ ، وقفَت ملائكَةُ السَماءِ لتصُّدَ عنكِ البردَ فارتَجَفتْ ! ، أما الحروفُ فقَد انحَنت لتكونَ في خطوطِ يديكِ بوصَلة .. فاقرئي إتجاهيْ ، عن صوتِكِ المبحوحِ في صَدرِ الضَجيجِ .. عن غُرَّةٍ لَم تجد من يُرتبُ بعثَرتَها فإنحَنَتْ .. ، مريولُكِ الوردي ؛ ضَاعَت بَهجَتُه ! أيُّ مَدرسَةٍ سَتفتَحُ أبوابَها ..في الليلِ يا زَمانْ !؟

ماذا أقولُ .. و قَد سَلبتِ الوَعيَّ مني .. قاسَمَتْني الحُضورَ في أحلامِ العَتبْ .. نادَيتني ، و لستُ ألبيكِ نَشيداً وَطنياً ..؟ هَل يَفي عُمري كَي تَظلي رايَةً حُرَّة ، و تُعيدي رَصدَ سُكناكِ باحتلالِ الكَونِ و استعادَةِ كوكَبكِ ؟ هَل يَكفي مني أن أصيرَ الشَمسَ كَي أمدَّ وَجنتيكِ بحُمرَةٍ و وَرد .. هَل تقبَلينَ أن أُناجِي النُجومَ كَي تُقَلّدكَ الوسامَ و تَرصُفَ في دَربكِ الأثَر .. قُولي برَبِّكِ يا صَغيرَة .. هل تَليقُ بِكِ قَصيدَة ؟ هَل تقبَلينَ مني اسرابَ الفَراشِ مُلَوَنة .. هَل تُسامحينَ الوَهنَ مني .. بالقُبُول ؟

يا أميرة .. سَامحيني ، تلكَ راياتُ الأفولِ تمادَت ليلَ صَادَقنا المُحال ، سامحيني .. لَستُ أستطيعُ أنَّ أمُدَّ يدي كَي أتلقَّفَ ما تبقَّى من صُورَتكْ .. مَغلولَةٌ للعَجزِ إني و آيلةٌ للمَيلِ في مَصيركْ .. و إني أدرَكني البُكاءُ يومَ طارَدكِ النُعاسْ و شَلَّ غفوَتكِ ، كيفَ أسامحُنيْ ! و أنتِ تكبُرينَ معيْ ، في رَحمِ حُزني .. و تُسْقطينِي على السَطرِ ، كُلَّما كُتبتُكِ.

خَبئِيني في ضُلوعِك ، هَشَّ كالورد إنِّي بالكاد تراك من وَسط الضَبابِ ؛ عُيونِيْ ! ما عادَ لي بَيتٌ كَي أُزخرِفَ السَقف الآيل لانفجارٍ بأمنياتِي و نُجومِكْ!

أمَّاهُ لَو تَبني لي في سَماءِ حُلمِك قَمراً ، تُزَخرفينَهُ بِحُمرَةٍ من خَّدكِ كَي يَبتسِم ، فإني أخافُ ظُلمَةَ الليلِ الكَثيفْ .. أخافُ حَوافِ الهِلالِ ، و أخشَى دونَ عَينيكِ النَظرْ!

خَبئِيني من صَوتِ البُكاءِ و عَنهُ ، إنَّ الحُزنَ يَرصُدني بِندقيَّةً و مَصيرا.. و إني أُريدُ تعلُّمَ السيرِ خَلفَ ظِلِّك المُضيءْ .. ، و إحصاءِ عَدَدِ قُبلاتِك على خَدّي الصَغيرْ، .. أمَّاهُ هَدهِدي مَهدِي و غَنِي لي عن حَمامَتينِ سَكنتا أُفقَ اللجوءِ ، كَي أُمُدَّ أغصان قَلبِي نَحوهُما .. و أستقبِلَ الهَديلَ ؛ سَأفتَحُ نَوافِذي كُلّها ، و أَسجُدَ على سِجادَةِ صلاتِكْ ..

خَبئِيني .. عَن سِيرَةِ الحَربِ اللئيمَةِ و استدامَةِ جُرحِك ، علميني كيفَ أتهجَّى اسمك بِحُروفٍ عالِيَة ، كَي أنطقَ السلمَ نَشيدْ .. أمَّاهُ النورُ في عَينيكِ ضَئيلْ ! مَن خَطفَ الوَهجَ من أَعصابِك و عتَّمني ، و الأسوَدَ من سَنابِلِ شَعرِك الوَثيرْ..؟ خَبئِيني عَن بَردٍ تسَّربَ من جِهاتِ الرَّعد ، لَن أؤمنَ بِشتاءٍ بعدَ دُموعِك أمَّاهُ ، خُذي من دُموعِي تَميمَةً و صَلّيْ .. كَي نُقيمَ رَبيعُنَا في جَنَّةِ الخُلودْ .

حمَلتْ وَجعاً أثقَل من عُمرِ الوردِ ، و لَم تَنحَني!

في صَدرِها قَلبٌ حُدودُهُ وَطَنٌ ، على ظَهرِها قَضيَّةٌ بوَسمِ الحَربِ

خَطَّتها بنودُ سَلامْ ، و بينَ يديها صَغيرُها ملائكيُّ الأحلامِ سَارِحٌ

في مَداهُ سَاهِمٌ في عُيونِها .. لا يَبكي ! لأنَّهُ يعُزُّ عليهِ أن يَزيدَ

رَصيدَهَا من الوَهنْ .. لذا ابتَسَمْ ..

و سَيَبقَى يَبتَسِمْ ،، رُغمَ الجَليدِ الذي نَما من أَصَابعِهِ الصَغيرَةِ ،

و غُبارِ ما تَراكَمَ في ثِيابَهِ البيضاءْ .. رغماً عن جُوعِهِ الكَبيرِ ،

و وَجهِهِ الصَغيرْ.. !لَن يَبكِي لأنَّ أمهُ سَتحمِلُ البُكاءَ عنهُ و مِنهُ

تَزيدْ!

في تجاعيدِ وجهِكِ روايَةٌ لم يُجِد سَردَها الوَطنْ .. هذه الخطوطُ

تَسْتَحِي من عَجزِ الخَرائطِ عن رَسمِ الحُدودِ التي تَليقُ بِحجمِ

سَلامِكِ ..

اتضحِي أيقونَة وُجودْ .. لا تَخجَلِي من صَوتِ بُكائكِ المَكتومْ ،

أطلقيهِ في المدَى كَي يرُجَّ السمَاءَ و يَسقُطَ المَطر ؛ سُكَرْ ..خَوفاً من

أن يمسَّ قَلبكِ المَخدوشَ بالوَجعِ ملحُهُ .. سيري على خُطَى الغيمِ

فإن قِيامَةَ العَفوِ قَريبة ، سَيَعودُ حَفيدُكِ كَي يُقَبِّلَ يَدكِ و يُعْمِر

بَسَاتينكْ ..

افتَحي عينيكِ على مَشهَدِ الرَصَاص ! وَثّقي عَتمَةَ أفقِ العَصافيرِ و سُقوطِهَا ، افتَحي يَديكِ و احمليها كَي يَطيب لُجوؤُهَا .. افردي يديكِ و عَانقي وَقعَ النجومِ فلا يَطيبُ لكِ وُجومْ .. يا جَدَّتي لا تُقَلِّصي البَوحَ و لا تُخبئيه ، هذا هديُلكِ أطلقيهِ عَالياً ... صَفَّارَةَ إنذارٍ تُمشِّطُ الصَدى من ضحَكة الانفجارِ ، كَي يقِفَ الزمانُ عندَ بابِكِ و تُرَدّدُ المَلائكَة بخُشوعها اسمك ..

× × ×

لَو أقاسِمُكَ شَغفَ الأفولِ ، و أنسَحب حيثُ الوَجع الذي تَرَّبَع عَرشَكَ.. لَو أُداري عن عُيونكِ احتباسَ النُورِ ، و أهمي نازِفَةً على خّد المُخَيَّم .. لا تَغسلي وَجهَكَ ! لا تَغسليهِ .. أبقيه هكذا مُفعماً بالحُزنِ كَي تنْثَال القَصائدُ على الدفاترْ و الضفافِ.. عنواناً عَريضاً و جِسراً يَمنَحُني العُبورَ إليكِ ، قَضيَّتيْ الكُبرَى وُلِدَت يومَ هَتفت فَتَصَّدَعت الأرضُ و آلَتْ لِلسُقوطِ قُربَ أنفاسِكِ السَماءْ .. يومَ نَصَبتْ الضُلوعُ أعمِدتَها قُربَ رياحينِكْ!

لا يوجَدُ مُتَسَعٌ من الغَيم ليَفرِدَ مَوسِمَهُ ، كَي يَدورَ نخبُ الملائكَة على الحاضِرين مِنَ الوجودْ ! لذا ألقي دُوارِكِ عَن جِهاتِ الدَربِ و انبَثِقي في كَسْتنائي التُراب شَامِخَةً رُغمَ القيودْ ! هذا مَجَالُكِ في مُباحِ الرَسم ، لَونيه بنَقشٍ من زَهرِ برتقالٍ تَغنَّى في مَدارِكْ .. لا تَتَرَدَدي يَوماً بِعَقدِ جَدائلك ، اجعليها طَويلَةً فضيَّةً كَي نَصنَعَ مِنها للمَشَانِقِ اختِصاراً مِن جَميلِ وَعدِكِ ..

× × ×

في خطوطِ كفِّكَ قرأتُ فاتحَةَ الحِكايَة ، و لم انتهِ إلا صَوبَ النبضِ فيكْ .. أشعلتَ بي حُبَّ زَهرِ الليمونِ فلم يخمِد حَنيني حامِضُ الومضِ و لا مُرُّ الحِكايَة ، لكنيْ احتَرقتُ ليلَ صادروا الغصونَ المثقَلةَ بالثَمرِ .. عَن عيونيْ .. حمَّلتَني مفتاحَ عودتكَ و غادَرتَ الدروبَ نحوَ شَمسٍ انحَسَرت خلفَ الضَبابْ !

جدِيْ .. نامَت مدينَتُنا و ما استيقَظَتَ كَي تقطف ثمارَ ما نضَج من أزمَة حَنيني !؟ هل تَورايت خلفَ الشمسِ كَي تَقرأ عَتمتي ! أم أنَّكَ في سَفرٍ تُعجِّلُ تَسليمَ عَناويني ..؟

أينُكَ شَرفَةُ الدارِ تُناديكَ ، مقعَدُكَ الخَشَبيُّ و غَليونُكَ الذَهبيُّ .. عُكازُكْ !تلكَ الجرائدُ باتَت تُكَررُ عُمر عناوينها .. دُونَكْ ، كأنَّ المشهَدَ فقدَ اتزانَهْ ، تداخَلت الوُجهاتُ و إختَتَمني التوقيعُ فاقتَبستُ لهُ اسمِكَ..!

جَدِيْ .. يا كَرمَةً ما ذَبُلَت أبداً وَلا مالَت ، شاخَت بي الأحلامُ قَبلَ أن أصلَ لغُصنِكَ العاليْ ، تراكَم الشَعرُ الأبيضُ في رأسِيْ ، و لستُ أدركُ حكمَتَك !كيفَ اللجوءُ لصَدرِكَ الأمتَن ؟ هذا الحِصارُ جمَّدَ الرُؤى في سَقفِ محرابيْ ،و ليسَ لي بعدَ بُعدِكَ غيرَ بابٍ مُقفَلٍ على عهدِ الجِنانِ ، تَلوتُهُ في وَصاياكَ كِتابْ ، و تَوكأتُ في إنتظارِكَ عُمريْ ..

جَدِيْ ؛

أعِدُكَ .. بالخُنصرِ المَختومِ بعَزمِيْ ، وعدَ رِجالٍ ! أنَنِيْ حينَ أكبرُ سأكتُبُكَ اقتباساً قابَ قوسَينِ و قَلبِي ، و أحفَظُ عِشقَكَ عن ظَهرِ غَيبٍ ، و أتبعُ حُبَّكَ لفلسطينَ سُنَّةً و أودِعها الغرامَ .

هذا وعدِي ، لَو اشتريتَ لي «مُسدسَاً بلاستيكيَّاً و بَضعَ خَرَزٍ وَهيٍّ» في أوَّلِ عيدٍ قَريبٍ يَنتَشِلُنا من مَشهدِ الخِصامْ .. ؛ إشتَرِه ليْ ! كَي أحمِي عصافيرَكَ ، أستودِعها صَدرِي .. أبني لها أعشاشاً .. من رَصيدِ الصَّنوبَرِ أمنَحُها إنتفاضَتِيْ ، و قُربَ ترنيمةِ سَلامِها .. تَسندُ رأسَكَ يا جَدِيْ ، وَ تَنامْ .

ضاقَت بِنا الأرضُ ..كُلُّ الدُروبِ تَشَابَكت.. مَزروعٌ رَصيفُنا ألغامْ ، و لَيسَ في السَماءِ هُدنَةٌ كَي نقايِضَ الثَلجَ بالربيعْ ، و نسألَ الغيومَ صَفو لَيلٍ خوفاً من بردِه على هذا الرَضيعْ ! هذه الفصول تواكِبُ الدورانَ ، و إنَّا يا وَلدي نَسيرُ.. زوادَتي آيَةُ الكُرسِي .. و مِفتاحٌ يُناجِيْ الأبوابَ لَو تُفتَح على خافِقَي الأثيرْ..

إلى أينَ الرَحيلْ ؟ .. ليسَ هذا السؤالُ المُذيَلُ بأقحوانِ عُنفوانِكَ يا بُنَيْ ! ، نحنُ سَندورُ حولَ الأرضِ كَي نزرَعَ الشُموخ ، و نَحصُد الوُرود .. و هذهِ البذورُ في جيوبِنا دَليل ، بأنَّ فينا ما يُؤدِي لوجهَتِنا بعدَ الشَهادَةِ ؛ عِيدْ ..

مَتى عِيدُنا ؟ الآنَ و كُلَّ يومٍ يا بُنَيْ ، زغرودَةُ الأمُّ تَقطِفُ الذُهول ، و صَرخَةُ الشَهيدِ توثِقُ الصَدى تردُّهُ لِسَمعنا نَشيدْ .. هذا عُرسُكَ لَو أردَت الوصولَ لِمفتاحِ دارٍ و سُكنَاها رَفرَفَةُ عَلَم ، عليكَ أن تفتَحَ في جَبهتِكَ للفَرحِ كَوكَبَةً و ترتادَ النجومَ رُتبَةً و مَصيرْ..

يَنحَني هذا الغُصنُ المُثمِرُ حينَ تمُرَّ ، و ترتفِعُ الوارِفاتْ .. تؤدِي إليهِ تحيَّةَ حُبٍّ مُزهِرَةً امتنانْ..

نَظَر بِعينهِ و الصورَةُ فيهما مُجَّعدَةٌ ، و قَال : هذهِ الأرضُ يا وَلدِي تُحِبُّكَ .. تعشَقُ نبضِك ، مغرَمَةٌ بتقفِي أثَرِك .. فقَد انبَتتكَ كستناءً ، فاسقِ تُربَتها بِدماكْ .. هذهِ السنابِلُ لَو تعلَم ، تُقاوِمُ لونَ الرمادِ ..تداوِمُ ذهبيَّها لامعةً و تُعانِقُ ما تُصادِفُ من وَحي دُعاءٍ و غارْ.. إعقِد من زَهر ليمونِها تاجَاً على عرشِك ، و امنَحهُ لصمودِكَ ..كُلَّما بذلَت في حُبِّها عُمراً ، و حينَ تنزِفُ رُماناً في مَسائكَ الأخيرِ، و تحتَ ظِلَّ شَجرة التُوتِ .. تَنامْ ..

علميني كيفَ أنفُضَ الغُبارَ عَن عُيوني و أنهَض ! إنَّ بِي من غُربَتِكَ أوطان ، بَنتْ حدودَها على جُدرانِ عَجزِيْ .. يا طفولَةً ضاعَت بينَ الرُكامِ ، انحنَى الوردُ خَجلاً و غصَّ صَمتاً على شائِكِ الوعودِ ..وماتْ !

عَلميني يا صَغيرَة ، كيفَ للسجنِ أن يكونَ أرضاً رَحبَة لا حدودَ بَل اتساعْ ، وكيفَ للسَجانِ أن يدوسَ بساتينَ أفراحَكِ و يُصادِرَ لعُبَتَكِ المُثخَنة خَاصِرَتُها بالجِراحْ ؟

خَوفِي علي من انبعاثِ الصَرخَةِ المَكتومَة منك ، طَلقَةً في مَداك .. هاتِي القصائِدَ عنكِ يا صَغيرَتِي ، أحمِلُها عن مَلامحكِ.. لحناً لا ينحَرِفُ مهما دارَ الزمانْ ..

عَن مَن أبحَثُ .. كَنسَ الغُبارُ مواردي ، و اللونُ وحَدَني به ، غَيَّبني اللونُ و لم يَمنحْني تكويني الإنسيُّ .. صِرتُ إليه رمادْ !

أين أتَجه ؟ و الطينُ مدموغٌ بأوجاعِ الرحيلِ ضمَّ قدميّ ، مارَسَ فَلسَفَتهُ كَي يلَطخَ براءَتيْ .. و ما تركَ لبَصمَتي أثَرْ !
مَن أنادي ..؟ نَسيتُ اسمَ كَوكَبي و تاريخَ ولادَتي و اسمَ أميْ و البرجَ الذي قِيل لي بأنهُ انتمائي للحِصارِ المَنهجيِّ و الفَزَعْ ، فكيفَ

أطارِدُ ظِلَّ والدي و هو لم يترُك ليْ صَوتَهُ على وَجهِ القَمرْ ؟ ،نَسيتُ ما نَسيتْ.. لكني لَم أنسَ هوَّيتي ! و أمرَ الهُروبِ المُؤكدِ من ذئبٍ عَوى ، سَرق السكاكِرَ من يَديْ و مضَى يطارِدُ وِفرَتيْ طفولَةً لا تنطفِئْ .

تجمَّدَ الخطوُ بي و عيناي ساهَمت في الذُبولِ مَعي ، كأني شَجرَةٌ صامتَة ، يتلاعَبُ فيها النَسيمُ و يبعثرُ صورَة ملاحِها البُكاءُ .. لا تحِدُ جِهاتها عصافيرْ.. لا تَسكُنها القصصُ ، وحدها فَزاعَةُ الموتِ فَرَدت يديها كَي تَثقُبَ قَلبيْ و تَقتفِيْ الخَرابْ ..

ماذا أريدُ ..؟ يَداً أو جَناحْ ! ، يَداً أو جَناحْ ! ... إنسيَّاً صَغيراً بمثلِ ملامحي المُتعبَة مغموساً بالوَحدَة مثليْ تائهٌ في المَصير ، أو كَبيرَ الخُطواتِ غَليظَ القَبضَة ، في ضلوعه يُخبئُني ، يَحملُ عني أوجاعيْ و لا يتعَبْ !، أو مَلاكٌ أبيَضُ اللونِ كَثيفَ الضُوءِ .. يَصعَدُ بي السَلالِمَ ، يَحملُني على ظَهرِه إلى أبراجِه .. يَخطفُني ..

مَن يضمَنُ الوصولَ في متاهَةٍ أكبَرَ من أمري وَ عُمريْ .. مَن يملكُ خَرائطَ من وردٍ مَفاتيحها لُجوءْ و أبوابُها وَطنْ؟

كُلُّ الميادينِ أغلَقت بالحاجزِ على دُوراي ، صادرت البقاءْ .. هَل لي ألا أدَّثرَ صَوتي و ألتزمَ الصَمت على أعتابِ مَشهَدكُمْ ؟

أُتركوا لي لوني السماوي و بضعَ دموعٍ كَي أغسلَ وَجعي ، هُنا يُقيمُ النَزفُ في عُمقي و فَرطِ خَيبَتي بِكُمْ ؛ يَبتَسمُ! .. أُداري تعبَ ملامحي بالضُوءِ و أتعثَّرُ بالكَفنْ!

ما لي أعاتبُكم و أنتُم من أتقَنتُم كتابَةَ الزَمن ، بِحُروفٍ عَربيَّة ! عَلموا حَفيدي من بَعديْ .. أن نَشيدَهُ الوَطَني كَتبَ فَصلَهُ الأخيرَ فَجرِ هِجرَتي القَصريَّة !

هذا الطينُ أملَسُ من مَسامِ العَجزِ في كَفيْ ! أشَكلَهُ قِلاعاً من وَهنْ ! هل أعجِنهُ بدموعي كَي يَلينَ أكثَر ! أصنَعُ من غضبي عليهِ ، حَجرْ ؟!

أيامي غُبارٌ ؛ لَيلي كُحلي بِلا نجومٍ و نهاري مثخَنٌ .. باللهَبْ !

عَن والديَّ لا تسألَني ؛ قَد طالَتهما حَكايات قَبل النوم من جَدي ، سكنا الصَفحة الأولى من روايَة الألمْ ، و انتهيا حيث اقتِحامْ ..!

قِيلَ لي ..إنَّ بي سُنبلَةً سَتشُقُّ الحِصارَ و تنهَضْ ، و لا زِلتُ أبحَثُ عن بِذرَةٍ تَنمو أو ماسَةٍ تَسمو .. على أرصِفَةِ الوَطنْ ! هذه رُقعَتي التي حاصَرتُها بالرقصِ .. بأصابِعي الصَغيرَةِ نَقشتُ سيرَتي رمزاً على جذعِ اللوزِ ، و أردتُ أن أُنجزَ مُتطلَبَ الوضوحِ فإنطَويتُ مَنسيةً في فصلَ التَعبِ ، اتسَخ فُستاني و عُدتُ الدَّم يُنجزُ مهمَّة اختفائيْ ، و يُسَّلم نبضِيْ .. هل أسمَعُ توبيخاً منكم ... عُذراً ، فقَد لعبتُ .. و لعبتُ .. حتَّى طالَني بُنيُّ العَتبْ !

مقاسُ المَجدِ أكبر مِن أثَرِ خُطوَتيْ ! ماذا أفعَل يا أمَّاهُ .. الحِذاءُ أكبَرُ من قَدميْ !!

الأمسُ طارَدَ رفعَتيْ ، اليومَ صادَرَ نَبضَتيْ ، و الغَدُ هاجَرَ عمداً عن شُرفَتيْ .. أخُطُّ على الأرضِ روايَتي مأزِقْ ، و أبحَثُ عن نافذَّة كَي أنشُرَ جناحيّ .. و أخيِّبَ ظَنَ الأسودِ الكَثيفْ.

عصفورَةٌ ابتَلت بالدَّمعِ أنا ، اختَلَطت عليها الجِهاتُ ، نهارَ انكَسرَت بوصَلَةُ المآذنْ و انخَطفَت عن بُحيراتِ القَصَصِ سيرَةُ البَجعْ!

هذا الطينُ يُعيقُ رَقصَتيَّ الجَميلة ، خُذيني يا أمَّاهُ للغَيمِ ! كَي أريكِ قِصّتي و رَقصَتي .. أبدو في أفقِ ميدانيْ ، ساحِرَةً .. أميرة !...!

أمَّاهُ أنظُريني ، أنا أعتَلي المشهَد بإنسِجامٍ ، لا ينقُصني عزاءٌ ، فصَفقيْ !

لا تودِعيني .. لَم ينتهِ هذا القصفُ ، ضُمي دِفئي و إرتجافيَّ بينَ يديكِ و لا تتمنيه ؛ هذا القَصفْ !، أخافُ أن أدوسَ الأبيضَ المرئي ، بِنزيفِ الكَستنائيِّ .. اخافُ على فستانِ الضوءِ أن يبتَّلَ بالحُزنِ ، عليكِ يا أمَّاهُ ؛ أخافُ ..

من صورَةٍ لي مؤطَرَّةٍ بالموتِ قَبلَ موعِدِ القِيامَة !

أحجِيَّةُ الموت أكبرُ من أحلامِيْ ! لا أزالُ صَغيرةً و رئتي تفيضُ دُخانْ ..

مَن أشعلَ الحربَ في قَلبي ؟و راح يتلو عليَّ لأجلِ سَلامي ، آياته ..

مَن قَصَف تفاحَتي الحمراءْ ..؟ و اقتَلَعَ جذوري قَبلَ استيقاظِ الندَى ، و طيَّرَ لهفةَ عصافيري ببلوغِ الفضاءْ !!

مَن قيَّدَنيْ بكابوسٍ لَم أرغَبْ بهِ ، و سيَّجَ تضحيَتِيْ بذَنبٍ لَم أقترفْهُ .. و ما صَفح!

إني صَغيرة ! و مَطلَبي كَبيرٌ، بحَجمِ الوَطنْ . هَل لي بأمنيَّةٍ مُغلَّفَةٍ بصورَةٍ لي في داريْ ، مبسَميَّ شَفيفٌ و جَبهَتيْ تطرَحُ الزيزفونَ ! أو عُلبةٍ زرقاءَ مخمليَّةٍ تَحرُسها النوارِسُ .. تتسِّعُ لما تبقَّى من أضلاعِيْ !

هَل لي بِدُميَّةٍ تشبهُ أميَّ ، تَسكُن قُربَ تفَّتُح عيني ، بِشَعرِها الطَويلْ تغطي البردَ و تنتهزُ النعاسَ كَي تغَنيْ لي عن حمامَتينِ .. تكونُ أميْ بَبَسمتها الفَريدة!

هَل لي بعقدٍ لولو من نجومِ عُيونكُم .. و قِصصاً مصورَّةً تحكيْ عَن ذئبٍ بَنى فوقَ قَلبِ ليلى خَيمةً و راح يمشي إلى جسرِ الميعادِ دونَ جوازِ سَفرْ!

أحجِيَّةٌ أكبرُ من عُمرِي ، بالكادِ أستطيعُ فَهمها !

أليسَت ثَقيلةً تلكَ الضفائرُ التي تراكَمَت في طابورِ الجائعينِ .. و كَثيرَةً تلكَ الغزلانُ التي اختبأت من انحرافِ الزَمنْ ؟ و عَصيَّةً عَن الإنبعاثِ صَرخَةُ الأنينِ من أطفالٍ بِعُمري بَعثَرتهُمْ على أرصِفَةِ الشُرودِ ؛ مِحَنْ ؟

ترجِمُني أغنيَّةً .. أو حروفَ تَهجئةٍ ! أرسموها لي بأقلامِ التلوينِ الخَشبيَّةِ على جدارِ العَزلِ .. و أجيبوا ، أجيبوا يا كِبارَ القَبضَةِ و صِغارَ العَقلْ ، عن كُلِّ أسئلَتي ! لا تواسونيْ ...

عَن دَفتري تتحَدثون ..؟قَد وثَّقَ خَيبَة طُفولَتي بِكُرَةٍ بُرتقاليَّة
اللونِ كَشمسٍ كانت لي قَبلَ أن يَرمي بِها الغولُ فوقَ السور!
كَتبتُ فيهِ كَم شَجرةٍ عليَّ أن أحمي ، فقَد تعلَّمتُ العَّدَ منذُ فقَدتُ
ثلاثَةَ إخوَةٍ و أبوينِ و دَارْ !و رَسمتُ فيهِ طائِرَةً بِجَناحٍ مَبتورٍ
لَقِيت حَتفهَا وسطَ اعصارٍ ؛ فلَم تَحمِلْني ولَم أبلُغِ المَدى ..

هُناك لَو أعود ،..أبَدِدَ ما بناهُ مِن وَهَنٍ ذاكَ العَنكبوتْ .. لو
أستعيدُ دَفتر عُمرِيْ ، كُرَتِي البُرتقاليَّة .. ألتَقطُها ، و ألعَبُ مع
إخوَتِي الثلاثَة ، و أنامُ بينِ والديَّ ، و أدَّعِيْ أن في جَبهتِيْ حرارة
كَي أصنعَ الشَغبْ .. و دونَ أن أُخطِئَ في تِلاوَةِ آيَةِ الكُرسِيْ أَحظَى
بقُبلَةٍ و حَلوى ، اشتَقتُ أن اصطادِ الصَدى بِصَوتٍ مِن حريَّتِيْ و
أنا أناديْ تَعالوا لِتَلعَبُوا خَلفَ الأَشجارِ ، تعالَوا نجتاز الأسوار ..
أما عَن الدارِ ؛ فَستكونُ لَنا وَحدنا يا أنا ..

× × ×

عَجَبي من الأرض التي ضاقَت بنا .. كانت ملاعبُ فكرَتي أوسَعَ من أن يُغلقَهَا المَدى!

كيفَ لكُراتي البلوريَّة المُلوَّنة .. تلكَ التي تُضيءُ رُغمَ الليل حينَ القَصفْ ، أن أنثُرها على العَتبَة ؟ .. عينُ غول طالَتني بِرَكلَة غادرَة ، أدركتُ بعدَ تعثُّري بها ، أنها كانَت رَصاصَةً ؛ لَيست بِخامِلَة ..!

ما قيمَةُ اللهو المُسالم دونَ العابي ؟ ما قيمة أن أتعلَّمَ رَصفَ السنينَ بالتصويبَ و الإملاءْ ؟ اندَثرت أحلامي في حُفرَة و طَمَرتها غُربَة ، و سَكنت نَظرة عَيني الغَرابَة ، فَلماذا التَصويرْ؟

طُرفَةٌ لَم أُرفقْها بِضحكَة ، لم أختَتمها ، هيَ من سارَعت الخُطَى لتضَحكَ علي .. أين تَتمَةُ صورَتيْ ..؟ بَقيَّتيْ ..! هذه قِصَّتي الكاملةُ ، بِفَائض النَزف سَورتُ الناقصَ من مَلاعبيْ ! و تبيَّن لاحِقاً .. أنيْ إنخَدَعتْ .

لَسنا نَرجو الخُبز ! حُلمنا ليسَ بقاحِلْ .. نحنُ صُناعُ المواقِد ، من طِيننا نَبني تَنّورَنا و نصَعد ، نَحشوهُ بالقَصَب الذي جَفَّ من حُزنِ زَيتونَة تَأخرَّ عنها انبثاقُ الرَبيعْ ، و نَبُثُّ النَار من غَضبٍ على مُحاولاتِ الصَباح اجتياحَ تِلالَ السَفرجَل .. و نُودعُ القمحَ أحلامَنا مَعْجُوناً بأيدي فَتياتٍ من وردِ البساتين ، تأمَلْهم يُراهنونَ على البَساطَة و الوَسامَة ، سَبَّحَ الكونُ فيهنَّ نَشيدَ الورد ، لقَّبَهَم أبناء البواسِلْ .

لَستُ جائعاً ! يا أيُّهَا العاجزونَ عَن خَبزِيْ !! ، هذه ديارِي بلونِ الرغيفِ و حَجمِه .. ، يداي تَكفِيْ لأُشعلَ الجَمرَ و أُصَفِّقُ ، و أحملَ الحقلَ و الخَصبَ و النَعْنَاعْ و أُحاكِيْ سَناكُمْ .. هُناكَ الثَمرُ لا يَغفُو ، و هذا المَطر لا يَعفو ، و بِذرَةٌ واحِدَةٌ تشُقُ في العاصِفَةِ إنحناءَها لتغدو انفطاراً من عَدمْ ، تهَبُ الغدَ سِيرَتهُ و تُحرِرني من قَلقٍ يتآكَلُ بِيْ وَندم.. كأنَّ الخَيرِ في أعيُنِنَا كانَ منذُ الأزَلِ .. يَطفو كالهالَةِ مَوسومَةِ الضُوءِ ، يَحرسُنا ..

لَن أطلُبَ الخُبزَ و لَستُ بجائعٍ ، أنا لا أجوعْ ! أنا لا أجوعْ ! .. كيفَ .. و خُبزِي هو سَنابِل قَمحٍ غَرسَها أبِي و هو يُرَتِّلُ آيات مَسعاهَا قِطافَ الذَهبِ .. دَعاني نادَى من السَماءِ يا وَلَدي .. سارِع بالوصولْ .. انا لَم أُطالِبْ بلقمَة تسُدُ فَميْ عَن الصَرخَة .. أنا ابنُ هذا الخَيرِ و الوفرَة ، فإن كُنتم جائعينْ .. قَلبِيْ لَكُم ، فاخبِزوهُ .. لا تتهافتوا ، كُلُّكم فورَ نُضجِ الجُرحِ .. يُمكنكم علي الحصولْ .. !

جرحِي الصَغيرُ في قَلبِي بَنفسَجِيُّ اللونِ أما رُوحِيْ فَأشبَه بِحمالَةِ حَطبْ .. عُمرِي وردٌ صَغيرٌ شفَّ عن إنهزامِ الأبَد ، كُلُّ هذا وَ يوماً لم أشتَكِ .. كُلِي رمادٌ ، لم يكفْ عن مُطارَدَتيْ التعبُ المَنسوبِ للدُخانْ .. و قَد غَلَفني الفضِيُّ في جَولَتِه و أنا أُكابِدُ ضِمنَ الإطارِ بأن لا أصيرَ محضَ ضَبابْ ، لهذا .. أنخَرِطُ بِصُنعِ الأحلامِ و أبنِيْ لِي منفَىً دونَ سِياجْ ! أوَّدُ لو أدخلهُ دونَ مَرثِيَّةٍ تَبكيني ، نُسخَةٍ أصيلَةٍ من دَمِ فلسطيني .. بِمعرِفَةٍ مُطلَقَةٍ لِعرافَةٍ تَنَبأت مَصيري ! وَ خَبأت عَنِيْ ، سِيرة السَرابْ!

هذا مَجَالُ غِنائِيْ .. حَيزٌ مَرهونٌ بالشَقاءْ ، أما البُكاءُ؛ فَعالٍ مِني يُدَّوي كالصَدى .. كانَ رُكني أخضَرَ ، و نوافِذي تُفاوِضُ اللبلابَ ، الآنَ أينَ نوافِذي .. كانَت هُنا ! عن طَرقِ الريحِ خَبأتنِيْ ، عَن مُدَاهمَةِ الموتِ كانت بِمثابَةِ ؛ بابْ!

فَلسَفَتُكَم في السياسَة لا تَرُوقُني .. لَم أَنْتهز التَحذيرَ المُسبَق و لم أُهَندس لسلامَتي أبعادْ ، إني تَوَضأتُ كَي أَجيءَ إلى الصلاة مُوشَّاةٌ بالشهادَة ! ، هَل تأخَرَّ مِنيْ .. الدُعاءْ !

أيَّ خَرائطَ تدَّعونَ ، مَطوية في جُيوبِكم الإجابات ! ، كُلُّ الملامح بِيْ تاهَت و دثرها التَظاهُرُ بالتنَفس يا مَن أَقمتُم على الأكسجين فينا ضَرائبَ و أحلتُم الشَهقَةَ الأَخيرَةَ للسُؤَالْ !

نعَم ضَاعَت مَلامحي ، باتت تخافُ من موتيْ .. الحَياة ! ، أينَ ما ليْ من ثَبات هيأَ لِهُطولي تَرقُبُهُ ، و حَملَ الضمادَ و دَواءَ التخَثُر ؛ كَي يُنصفَ انبهاريْ من صَهيل يَخرجُ من صَدريْ .. كُلَّما جُلدَ في العَلَن لي قَضيَّة ، كُلّمَا وجهَت إليّ تَهمَةٌ بأصابعَ شبهَةً بِفُوهَة من رَصاصْ .. وَحينَ لم يُنصفْني الصَمتُ فإنطلقَ مني مُضادُ الرَفضُ ؛ كَلامْ ، ..

من أوَّلِ الخَطو .. لآخره ، أَضيعْ ؟
هذه جِهاتُ بَراءَةٍ ضيَّعتُها .. منذُ لُجُوءٍ فَاقَ مَوطنيّ الصَغيرْ !
قالوا لي أنت الكَبيرةُ فيه .. خَبَأنَا في جُيوبِ مَريولك ؛ سَنابِلَ قَمحٍ .. و أودَعنا حَقيبَتك المدرَسيَة ؛ دفتراً و حَفنَةَ زَعترٍ بريْ ، في جَيبه المَخفيِّ ورقَةٌ باسم ميلادكْ ، قَلمٌ من رصاصْ ، و كيسٌ صَغيرٌ مسكونٌ بتُفاحكْ.. سيري نَحو نَجاتك ، اتجاهُك سلمٌ و درعُك دُعاءْ ، هاتي يَديك كَي نُساير وحدَةَ الطَريق ، و نعبُرَ الحَريقْ .. و نتبَعَ النُجومَ للغَد الآتي ، بِحُلمه الأنيقْ ..
من أوَّلِ الخَطو .. لأخره ، أضيعْ ؟

شَقِيَّةٌ أنت حينَ تَضحَكين ، لا تَدمَغي جَبينك بالوُجوم بك هذا لا يَليقْ .. سَيَبدو الرَقْمُ الصَعبُ فيه واضحاً ، زَخرفيه بالنُجومْ ! هذا مَسَارُك الضَوئيُّ المُفْعَمُ بالسحر ، سيريْ ، لا تَتَبعي العَتمَ المُسالمَ إنَّ فيه خُدعَةً خَلفَ السُكونْ .. و يَنبغي لخطوك سَريعاً أن يكونْ ! لا تُبطئي .. ! كُلُّ الإشاراتِ لَن تردَع فيك الجُنونْ .. كُلُ البِشاراتِ سَتزفُّك يا حُلوَتيْ ، لَستِ التي ، من أوَّلِ الخَطوِ .. لآخرِه .. تَضيعْ !

× × ×

بالحُروف أجيئُك كَي تَكتُبي حكايَتي وَطناً مُشرَعاً على القصائد ، بين طَيات التاريخ ألزمُك بأن تكوني السَفيرة!

فاقرئي على سَمع البشَر حُبَّك المُؤبَدَ و انتماءك للمَدينة .. و مَرري الضوءَ في عَينيك كَي تَصحو من الغفو مُظاهراتٌ خَطَفها تَهْديدَهم لصَوتك الذي تَبنَّى في المَجرة هذه المَسيرة ..

أمسكيني بيَديك و قَّلبي الأوراقَ في أمري ، لَعلَّ العُمر يُنصفُك بعنوانٍ ، يَضَمني و إياك مُفوضتينِ لكتابَة التاريخ مُوثقاً لنبضَك .. هذا خطابُك اصعدي صَوبَ مَنارات العَلن و انتَصريْ ، و اعلني فتنَةً في وَصف عتمَتي كَي أتجذرَ ضُوءاً يَعُمُّ الكونَ مَصدرهُ عينيك ، لتَبصُمَ الشَمس على قَرارك ، و تشُدَّ الكواكبُ أزرَك .. وَ يسقُطَ في يَديك عن مَداره .. القَمَرْ!

دونَ نَشيدِكِ لَن تَسْتيقظَ العَصافيرُ يا جَميلة ، كيفَ تُؤدي تحيَّتها بِطابورٍ صَباحيٍّ دُونَ صَوتكِ ..؟ هذا صَفكِ ما قَبل الأَخيرِ من تَخرُجِكِ ، أُدخليهِ آمِنَةً من طَيشِ إذاعَةٍ مَدرَسيَةٍ تُشَوِّشُ الخَبرَ ، و نِظامَ اصطفافِ القَهرِ في طَابورِ قَنْصكِ ! لَستُ أريدُ أن أُعَلمَكِ القَصيدَة .. ! و لا انسجامِ النَحوِ أو خَطَ الفَضيلة ! بَل أنا تُلميذَتُكِ .. أتعلَّمُ من عُيونِكِ .. علِّميني كيفَ أنجو من حُزنكِ .. و كيفَ لا أحملُها قَضيتكِ بِقَلبي و أضيعُ فيهما ؛ عَينيكِ و المَدينة..!

رَفعتُ يَدِي كَي أجيبَ .. على سؤالِكِ يا مُعلمتِيْ ! كَتبتُ فيهِ حِكايَتي صُوراً فاقت مَشهَدي ، لو أقرؤهَا على مَسمَعِكِ ؛

بدايَةً .. أعذريني !

دَفتري لن يتسع لرَّدِ نموذَجي بِكمُ يَليقْ .. - ، هو أمٌّ و أبٌّ .. لا يَنقُصُ أفرادُها ظِلاً على الأقَلِ ، بِسجل موتٍ قُيِّدَ بِدَفترِ عائلَة مُبالغٌ في نسيانها ، وَطنٌ صَغيرٌبما فيهِ الكفايَة كَي لا تُؤكَلُ أَطرَافُهُ من جَماعَةِ المَجَاعَة! مَنارَةٌ لا يصعَدُ إليها مَوجْ ! و طحالبُ لا تَرجُمُ الشواطئَ و تَسرِقِ المَحار .. بُستانٌ من التُفَّاحِ أخضَر و أصفَر ، و سّلتي الحَمراءْ ، لم تعرِفِ الخَريفَ فَصلاً طارئاً ، لم

أشهَد الدَمَار يَومَاً ، كان الحَمْدُ سُنَّتُنا به لَم نَعْرِف النُقصانْ .. رغمَ اختلاف العقيدَة..

بَحرٌ دافِئُ المَوجِ بِشَمسٍ كاملة، قاعَهُ مرجانٌ و أغانٍ ! قَمرٌ يَعزُّ عليه النوم ! يَسهَرُ ليسندَ سقفَ البُيوت ، و يَدعو للجَنين بأن يشبهَهُ .. أن أمشي إلى طَريقِ البيت دونَ أن أرى الدماءَ و الدُخان و الجَحيمْ ! و تَبقَى مَدرستي هُنا و هذا الصَّفُ مَلعَبي أنا أختار مقعَديْ بِقُربِ الرفيقَة .. حتَى أكبُرَ دونَ كابوسٍ بلا ضَميرْ، أشُدُّ على يديها – أختي التي لَم تَلدها بعدُ أميْ - و نكمِلُ المَسيرْ! ، أن نَراكِ غداً و بعدَ غَدٍ يا

مُعلمتي ، لن نَتَملمَلَ أو نَشكُو يا مُعلمتي من اختباراتكْ المُفاجِئَة و السُؤالِ القانِصِ للذُهُولْ ، فليسَ يُخيفُنا بعدَ اليوم غيرَ سَفّاحٍ يَحْمِلُ المشانِقَ و يطارِدُ الرُؤوسْ ، سَنعودُ ندرسُ الخرائطَ و نوَّحِدَ حدَّها و نُلَّونها بالوَردْ ، و نفهمُ الوثائقَ و نبَرهِنُ لساعَة الصفرِ إيقاعَنا ، مُعلمَتي .. نشدو على حَاجِزِ السربِ المُهَاجِرِ ما علَّمتنا ، من سيرَةِ الحَجرِ الذي استقامَ منذُ ظَهْرِ العالمِ انحَنى.. ، سَنعودُ نَتَخَطَّى المَكيدَة ، و نُعِدُّ خُطَّةَ مُقاوَمةٍ من مَقالِعَ و حَصَى .. !

ساهِمَةٌ في مجالٍ لَيسَ فيهِ حُلمْ .. اختبأت عن رُؤاي الزنابِق ، فكيفَ أَنْهَضُ من شُرودِيْ !

هذا حِصارُ الحَنينِ طَوَقَنيْ ، يَشتعِلُ كُلَّما أبصَرتُ متاهِيْ من خِلال الشُقوقِ .. انكَسَر الصوتُ مِني على حاجِزِ المِحَن ، و لم تَنفذ بعدُ يا أمرُ .. ذخائريْ .. !!

قُنبُلَتي الدعاءُ و حَسبي ، أُمنيَّةٌ تُجمِّعُ حولي أحفادِيْ ! هوَ القَهرُ عتَّمَ مَشْهَدي ، و الحُزنُ زخرفَ وَجهِي بِتَجَاعيدَ شَهِدَ عليها الزمَنُ و لم يعترِفْ..

يا ضُوءَ هذا الفَجرِ أيقظني لأُصَافِحَ الزِنَادَ و أَحْتَضِنَ المَدى ، ما عادَ في التاريخِ مُتَسَّعٌ ليُكتُبَ التَفسيرَ الذي يُسَايِرُ تَوافُقَ مَشهدي ! قبلَتي السَماءُ و صَلاتي وَطنْ .. هذا ما تبقَّى بعدَ رَحيلِهِمْ نحوَ الغِيابِ ؛ أحبَتِيْ ، وكنتُ قَد اشتَريتُ لَهُم القِطارَ ، و استَقمتُ أمامَهُمُ سِكَةً تُطالِبُ بالوصولِ إلى خطٍّ يؤدي جنَّة المِيعادْ ، كَي أقتَفِيْ التمرُّدَ في إختفاءِ ضُلوعِكم عَنِيْ .. و أنتَظِرَ وجوهَكُمْ في حقائِبَ تُركَت في المَوقِفِ الأخيرِ، يَنقصها حُضورُكم في العَلَنْ .. فيا فَجرُ أيقظني .. مع أني لَم أنمْ ! ، أوقَدتُ أصابِعي وَ سَهرتُ أضحَكُ على الهَشَاشَةِ التي قاسَمتُها شَغفِيْ ، جَلستُ قُربَ أعتابٍ أجادَت صُنعَ ظِلالِهم ، و أنسَكَبَتْ أدمُعِيْ تُحيي فيهم التَجَسُدَ في المَجالْ ، بَكيتُ شَوقاً .. و لم أنتحبْ !

لوِّح لي بِسهامِ دفئِكَ نحوَ جِهاتِهم ، يا فَجرْ .. قَد ضاقَ بيَّ السَفرُ و لا مفَرَ من اكتساحِ الصَبرِ ، غُصونيْ خاويَّة .. فالعصافيرُ هاجَرت حينَ نزَحتُ كَي أصطادَهمْ .. بُوصَلةٌ تشُدُني نحوَهمْ ، و قَد لَمَعَ وميضٌ جِهَةَ نَبضِيْ .. ثَقبَ السَماءَ بِيْ و أقصانيْ أناجِيْ ، أحملهُم في طَياتِ قَلبِيْ ، وَلا أشكو الثِقَلْ ، مِيثاقُ عَودَتِكُم مَحتُومٌ بالمُعجِزَة..

إنه حانَ الحِسابُ ، فَكم شَجرةٍ زَرعتِ مُقابِلَ الهَدمِ و كَم طِفل

انتَشلت ، وكَم طوافٍ قُدت ، لتَستعيدي الأُضحيَّة ! اعتقدتُ أنَهُ قَلبي الذي خَفَقَ ..! مُبالَغٌ حُزني و إني البَسيطَةُ ، فتكشَّفَت على مَرأى البَصيرَةِ ساحاتُ الوُفودِ ، و اتضَحتُم سِحراً لونياً في مَهَبِ المُعجَزَة ، لأميلَ كداليةٍ خاشِعَة ، حاجَتُها للأرضِ أصلٌ و السماءِ وَصلٌ ، كإنتمائِيْ للحَصيرِ و عُهدَتِيْ إليكُم بِمفتاحِ عودتيْ ، ..

ولَحقتكم إلى السَلامِ .. سَريعةً ، أخطو .. لا صوتَ صرير مفاصِلي يؤلِمُنِيْ ، و لا التجاعيدُ تعرِفُنِيْ .. و ليسَ يعترفُ العُمرُ أمامي بالرقَمِ العصِّي عَن الصمودِ ، إنَّ الرصاصَةِ التي خرجَت من ياسمينِ مَخبَئِي ؛ انفَجرتْ ، والرصاصَةُ إن صَعدَت لا تعودُ إلى الوراءِ .. يا أحبَتِيْ ؛ لا تعودْ !

يدُّقُ في رأسِي سندانُ الألم ، يَخدُشُ جُدران الذكرى و لا يَسقُط قُبيلَ نَزيفِي ! ، بِي هالَةٌ من رصيدِ العَتمِ تَنمُو ، مع كُلِّ تنهيدَةٍ تخرجُ من صَوتِيْ .. كالأنين !

لا أعلمُ ما قِيمَةُ العَفوِ عَن الخَيباتِ ، فإني منذُ دَربتُ خُطوتِي على السَيرِ أتعثَّر ، و يَبقَى السؤالُ .. مَن الذي قيَّدَ دَربِي بالحُفَر ، و تمرَّسَ صُنْع الهاويَّة ؟

هَل أُقبِلُ على الإنتقامِ و أرنو نحوَ جَبينِ الحربِ بِطَلقَتينِ و نُدبَة ..؟ ، وَقتها لَن تُعفيَنِي الهُدنَة لأقيمَ مَراسِمَ سِلمٍ أو كَلامْ..

أخبِرني .. ما أمرُ هذا الصُداع ، الذي يُرافِقُ سيرَتكَ كالظِلِّ و يحتَّلُ تفكيري ، علمنِي أن أتجاوزَ هذا الخَطب و أسطو على فَرحَتِيْ ، لأنمو خارِجَ حدودِ الدَمارِ و أزهِرَ على أعتابِ رَبيعي ، عَلِّمِي الحُزنَ أن يَمُرَّ خَفيفاً .. فلْيمشِ على رُؤوسِ اصابعِه قُربِيْ ، و أُخبرهُ ألا يزعِج أحلامِيْ .. ففي الليلِ لي مَوعِدٌ مع حِكاياتٍ كَثيرةٍ و بَجَعْ !

و لا تعهَد لي بسؤالِكَ المُعتاد ، فإنَّ الحُبَّ فيَّ .. أكبرُ من رَصيدٍ ، لا يطالَهُ حَصاد ، أصغَرُ من شعورٍ ، و أكبَرُ من خُرافة ! ، مهما أبديتَ من مَصيرِفَراشَةِ النورِ و شَرحتَ لي إمكانيَّةَ التَّفوقِ على مَسرحِكَ يا صُداعْ ؛ لَن يَنفَع ! فالكوميديا خرجت من الإعتبارِ للجَدليَّة ، و صارحتُ ابتسامَتِيْ بأنهُ لا بُدَّ أن أُلاحقكَ لأعترِضَ مَزَاجكَ بالزئبَقِ و النارِ ، لهذا ؛ أغلَقتُ عليَّ شَرنَقتي .. التَحفتُ الخيطَ الحَريريَّ ، و دَخلت غَفوَتِيْ المُخمَليَّة آمِنَةً على وَرقَةِ تُوتٍ، و سَلِمتْ ..

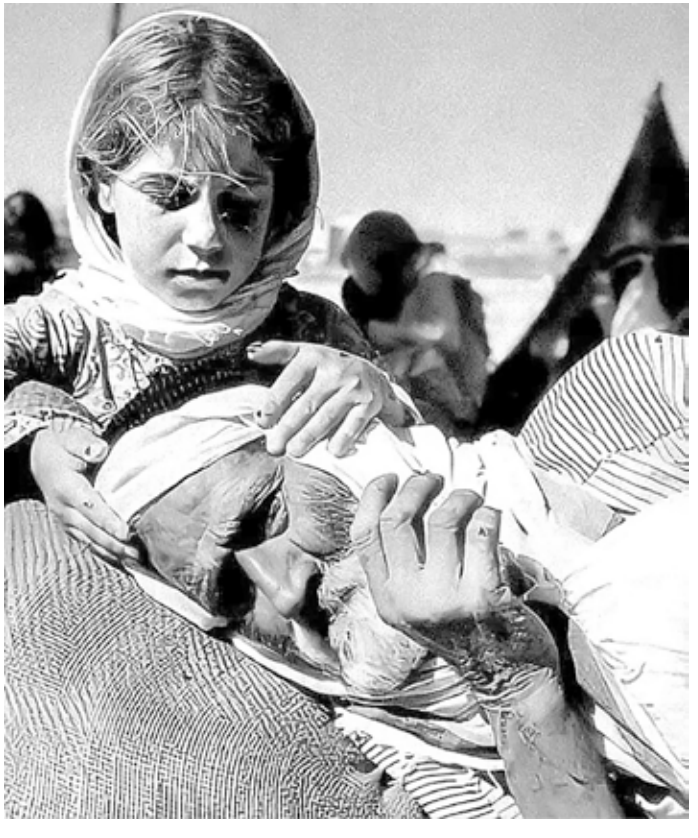

توسَّدْ جنَّةً أمنٍ لا تَدنو نَحو جَهنَّمهمْ..!
في قَلبي دَفْقُ يَكفيكَ و يَزيد ، و مَوتٌ أكبَرُ من جنازتهم !
لي يَدينِ من نَعيم ، دَعني أُرَبِتُ على جُرُوحكَ و اغفو .. احلُم
بِسَماءٍ خالِيَةٍ من رَمادِ إحتراقِنا .. تُمطِرُ وَردْ ..

لَو أمُدُ شِرياني إليكَ لتتوَّحَد أحلامي صَوبَ رُؤاكَ ، فَتراني في عُرسي مُجرَّدَةً من الحُزنِ .. أُغنيكَ و أَسمُو نَحو بَيتٍ مَبنيٍّ من طِينٍ وَ مَفروشٍ بالكَستناءِ ، لا مِن بَقَايَا الأزمَة .. و مَرايا الشَتاتْ!

يا جَدي .. لقَد كَبرُتَ جداً عَن أن أحكي لكَ حكايات ، كيفَ وَ كُلُّ ما في روايَتي منكَ ..عنكَ .. وَ لَكَ ..؟ ، هَل تَقبَلُ مني أن أُحَوّرَ نهايات الأَميرة ، و أَدعَها تَحملُ جَمرَةً في كلتا يَديهَا .. كَي تُلقيها صَوبَ الشَمسِ فَتنفَجرَ ! هَل تقبَلُ مني أن أُبديها -أميرَتُكَ- .. و قَد ابتَلعها البَحرُ و حَوَّلَها حُوريَّةً لَم تَرُق لَها النهايَة ، فَبَكَتْ ..و أَغرَقَتنا ذاتَ غَضَبْ !؟

اسمَح لي أن أدَلُلَ البدايات بِملامِحَ تَليقُ بِنا.. نَمْرحُ وَسطَ بيارات لَيمُون .. شَجراتُها تصعَدُ نحوَ السَماءِ و تُظَللنا .. أَلَكَ أن تَقبَل مني أن أَهمِسَ في أذنِكَ ؟ .. أقَلِدُ صَلاةَ الحَمام ، و في اسمِكَ .. أنامْ ..؟

يا بُنَي .. خَبأتُ لكَ ضِحكَةً تَليقُ بِسلامِكَ، فِيَّ من الجروحِ ما يُدمِي عينيَّ .. لكنِي أخافُ عليكَ من وُجُومٍ يُؤرِقُ منَامَك ..

يا صَغيرِي أُنظُر إبتسامَتِي ، أوَدُّ من خِلالِها لَو أمَّهِدُ لكَ طَريقاً أقربَ إلى الجَّنة.. هِي لكَ دَربٌ بَريئَةٌ من وَجعِ ما يَسكُنني.. أمهِلني من العُمرِ قَليلاً بَعد ، كَي أثبِتَ لكَ أنني شَمسُكَ الوَحيدَة .. و أنَّ ظِليْ القَمرْ .

ماذا يُخيفِكَ يا طِفلِيْ ؟ هذا الدُخانُ ؛ هو غضَبُ السَماءِ عَلى مَن قصَفَ البيتْ و رَدمَ الياسَمينِ و أضَحى يُطارِدُكَ بابتسامَة .. و هذا الحُطامُ هوَ لُعْبَتُكَ حينَ تكبُر ، فَهْندِس جُدرانَنا قِممَاً و استقِم نحوَ مَنارات مُرادِك ..

يا عَزيزِي هذا الصُراخُ هوَ نِداءُ المَساءِ ، لا تَخْشاهُ مَهما نادَى عليكَ باسمِكَ .. هوَ مُحتالٌ يَوَدُّ نبضَكَ و هذه العُيونَ الصَغيرة . فلا تَبكِ ؛ كَي لا يَخطفكَ الوُجومُ ، و يُعارِضَ الصُمودُ وَهمُكَ بالخَطرْ ؛ امسَح عَنْكَ دُموعَكَ ، أنتَ الكَبيرُ يا صَغيرِيْ بالحُلم و البِناءْ ، و اضرِب الأرضَ بِقَدمِكَ -هكذا- تَرتعِدْ ، لَسوفَ تَضْطَرِبُ الأساطيرُ مِن وَحيِّ جَوابِكَ ، و تَنتهِيْ تِلكَ القُيُودُ صَوبَ انتصارَكْ..

أمَّاهُ ؛ في القَلبِ رعدٌ ، و في عيوني مَطر .. أرتجِفُ من بَردٍ .. و ليسَ الشتاءُ قَريبْ!

دَثِّريني في جُفونِك ، خَبئيني في ثَوبِكِ الوَثيرْ.. أعيدِيننِي إليكِ ؛ حُلماً جَميلْ و طِفلاً صَغيرْ..

أمَّاهُ إني رأيتُ ما لَم يُرَا ، نَارٌ أحاطَت جَنَّتي و أغتالَت ألعابي ، تَجَرأت عَلى هدمِ سَقفي ، و صادرت بابِيْ .. .. أحرقَت أطرافَ أصابِعي بِجنونْ ! ، و عارَضَت الأغنيَّة !!

أمَّاهُ رُدِيني إلى صَدرِكِ كَي أستَريحْ ، لا يُنجِي ارتباكُ النبضِ بِي .. إلا تلاوتَكِ سورة الإنشراحِ بصوتِكِ المَسكونِ ملائكة ، لِيَطيبَ العَفو بِي ، أَتلو .. لِتَغفو في الجُروحْ و يصطَفُ ومضِيْ أنيقاً خَفيفاً .. مَوزونْ ..

أخبِريهِم عَن طُفولَةٍ اجتَزتُها قَبل أوانِيْ ! بعدَ أن صادروا منِي حُلمِي .. و هدموا مُقوماتِ أمانِيْ .. أخذوا من بينِ يَديَّ طائِرَتِيْ الورقيَّةِ التي زَخرفتُها بورقِ التينِ ، ذَيلتُ أطرافَها بالوردِ ، أطلَقتُها فوقَ الحُدودِ و سَطرِ الخَطرْ .. وجَّهتُها نحو انعتاقِ القَيدِ كَي تعبُرَ بِيْ للأُفقْ ، دارَت طائِرَتِيْ الوَرقيَّةُ في مَدارِها يا أمَّاهُ ، سَكنها الدُّوارِ حيث خاطَرت بقَلبِها ، و لَستُ مَعَهَا أدورْ ..

كيفَ أشُدُّ خيوطَ أمنياتِي و السَماءُ انهالَت غاضِبَة ..، بِما فيها من غُيومٍ و نُجُومْ ؟ ، جَميعُها عَارَضتني و أسقَطت نَيزَكِيْ ، تَجرأت يا أُماهُ أن تَقْبِلَني غَنيمة !!

مُجدداً ، و كُلُّ يومٍ أَسألُك ؛ أينَ ضاعَت طائِرَتي .. أَجيبيني ؛ هَل أُعيدُ صياغَتها بالحَديدِ الصَعبِ أم بألواني و الرُسومْ ؟ مُرهَقَةٌ شَظاياي و مُعلَّقٌ أنا بينَ أرضٍ قاحِلَةٍ و سَماءٍ حَمراءَ قَانية ، هَل تفيد النارُ لو أَوسَمتُها جَناحِيَّ .. هَل أستعيرُ منها النايْ ، و أطلِق صافِرَتِيْ نحوَ الخَلاصْ !

سَقطتُ و تناثَر ريشيْ .. أعصفورٌ أنا ! و طائِرَتِيْ تحطَّمَت ، .. على البراقْ .

رأسي مُثقَلٌ بالضَجيجْ .. أغيثوا ندائي !

فوقَ كاهِليْ حكايات ، و في جُيوبِ قَلبي صُراخْ ! أما عيوني فقَد جفَّ منها مَدْمَعي .. كَبرتُ و لا زالَت خُطواتي صَغيرَة ، و جَناحي ضَعيفٌ .. فكيفَ أطيرْ؟

في رأسي دوارٌ ، و أمامي يمتَّدُ هذا اللونُ الكَئيبُ .. يَصْعدُ نبوءَةَ ما ضاعَ ، من صَلواتِ أُمي في المدارْ ! أُجَابِهُ دَربَ النَارِ و أَصْعَدُ أدراجَ عَمري ، و أُميْ ؛ على أعتابِ عَجزِ البراءَةِ في عينيَّ .. تَبكِيْ !

رأسي مَجَرَةٌ ، و حُزني وَطنْ .. فمَن يَحملُ الأقمارَ عَنيْ ، و يحجبُ طَلقاتِ الفِتَنْ ...؟

و أتَت رسالَتهُ مُحملَّةً بغُصنِ زَيتونة !

كَم من رَبيعٍ مرَّ و أنا أدعو كُلَّ فَجرٍ كَي ترُدَّ حمامتُكَ الوعودْ ..؟ ،

حَمَلتُ رَسَائليَّ شوقاً إليكَ و أحصَيتُ غيابَكَ بزرعِ عَناقيدِ العِنَبْ

! ما زالَ في التُربَةِ وردٌ يصعَدُ رغمَ رَمادِ المِحَنْ .. خَمِن لعُمريَّ سَبباً

؟ تلقاهُ في قَلبِكَ قصائدْ .

و الآنَ قَد أتت رسالتُكَ مطويَّةً ، خبأتَ فيها زَهر برتقالَةٍ عتَّقتها

بالبَوحْ .. ماذا أردُّ عليكَ ، نوافذي مفتوحَةٌ على عودتِكَ ، فاقطِف

لي نَصراً كَبيراً أو إثنَينْ أو أكثَرْ!

لَن أقبَل بأنصافِ الرواياتِ ، عن بُطولاتِكَ أخبِرني .. فقَد علَّمتني

جدَتُكَ غزلَ المَواويل ، سَأُسمعكَ الكَثيرَ على مَرأى بهجَتك .

و أتتني مَخطوفَةً من بَريدِ اللجوءِ ؛ رِسالتُكَ ..! عناونُها وطنٌ و

طابِعُها جَبينُكَ .. ! يا عَزيزي قَبَّلتُ عِطرَكَ فيها و خَبأتُها تحت

الوسائد و قَرأتُها ألفَ مرَّةٍ و بَصمتُ قُبلَتيْ عليها إمضاء.. و

بَصمَتُكَ فيها .. أتَتني ناصعةً ، و كُلُّ ما قرأتُ من كَلامٍ لَا يَختصِرُ

الدروبَ .. أوَدُّ لَو يَخطُفكَ الحَنينُ من خَندَقكَ ، لتختالَ بصنعكَ

لي تاجاً من الغَارِ الناجِيْ من رمادِ البارود .. و تأتيْ إليَّ حامِلاً

لهُ ؛ وجهُكَ يانِعٌ و عيناك حُبْ ، و تنصاعُ قُربَ أشواقِيْ .. وضوحْ.

× × ×

خَبأتُ ضِحكَتكِ في جَيبِ قَلبي ، و العُيونْ .. حَرستُها بالشائكِ ، بالوردِ رَسمتُها !

وَعدي عَودَة ، و الظُنونُ قَتلتُها .. لا شَكَ في دُستورِ أمريْ ! أنا عَائدٌ و غَلَّتي خَرائطُ أَودِعُها يَديكِ و مَسَاحاتٌ من أَخضَرِ الوُجود ، و لكِ أتيتُ بأغنيَّة أصعَد بِها و صَوتُكِ حدَّ الجُنونْ .. خبأتُها جَنبات نبضِي ، ضِحكَتُكْ .

و قرأتُ في جَبهتكِ العَهدَ و وَثقَّتهُ يومَ الوداعِ بأن أجابهَ إحتلالهم لعُمريْ و أُحَرِّرَ البسَمة الجَديرة بالتوقُّد و التَوهُّج ، ثقِي أنَّ حُبيَّ للأوطانِ مقدَسٌ أبداً .. أنا منذُ استودعتُكِ عندَ اللّهِ سِلماً ؛ لا أَخُونْ !

أمنيَتي لَو أموتُ شهيداً ، لأحظَى بِكِ جنَّةً عَاليَّة و أَسقُطَ بينَ يديكِ ؛ صَغيراً أعودْ..
نَصريْ ؛ بأن أُمنَح وَجْهَكِ وَقَضيَّتِيْ – يا حَبيبَتِيْ- ؛ مَعنى الخُلودْ .

حَاصروني في رُكن أمانيْ !

فضَربتُ من غَضَبٍ ، ورَفعتُها عالياً يَديّ ، تلَّوحُ للسَلام!

شَهدَ عليَّ زمانيْ ؛ قَيَّدوني على جِذعِ زَيتونَة ، حررَّت أَطْيَارهَا و أَدْلَت أوراقَها ..و حَفرت على عودِها اسميْ ، و طَوَت في جَيبِها رسائليْ .

أَلبَسوني الرمادَ حُزناً ، أَخذوا مني اللونَ .. الأوراقَ و القلمَ ، فاجأتُهُم بروايَتي ، كَتبتُها بالدَّمْ !

قَطعوا أصابعي ، ما نَزفتُ دُموع .. لَم أقُل آه ، نَمَتْ شَعلَةٌ في اصبَعِي ، و أخذَت تختالُ بالضُوءْ !

عتَّموا عينيَّ ، ظَللوا المَشَاهِدَ بإطارٍ دَمويّ .. جَمَلّوا جِفني بهالَتين و أطلَقوا ؛ بينهُما رَصاصة !

لَم تخترِق جُمجَمتي تلكَ الشرارةِ .. حَسبي صَوَّبَت صَحوي ، نحوَ المنارَة ..

أَشْبَعوا أنفي برائحَة الاحتراق ، ففتحتُ صَدري ملءَ مصراعيْ السمَاءِ .. سَحبتُها غَيْمَة الدُخان ، أطلَقتُها زَفيراً مُشبعاً بالوَردْ .

غَمَسوا قَدميَّ بالجَمرِ ، و اقتاتوا على الضَحكِ ليالٍ .. و ضَحكتُ نهارَ تَشابَكَت عُروقي ، قَتلتَهُمْ بالتَجَدُدِ و التَمَدُدِ .

أتوْني كالجَرادِ يقتادونَي للموَتِ ، جيشاً يُطاردُ طفولَتي ! ..سألتهُم : ما تُهمَتي ؟ قالوا : قواعِدهُم تُبيحُ ..بإعدامِيْ ! و أدلت اتهاماتهم بضَرورةِ استسلامي !

فَوَهبتهم قَتلاً أشدُّ من الانتهاء .. و أقسَى ! صَدحْتُ في مَسامعهم صَرخَةً ، دَوَتْ في الكونِ و هزَّتْ ، كانت وصيَّةً ؛ بميلادِيْ .

ما ذَنبُ عُصفوري الصَغير من شُرورِكْ..؟

كانَ أصفَرَ اللونِ جَميل ، يُنشِدُ السُكنَى في داري .. يَصعَدُ باللحنِ و يطالُ سَماءَ البِلاد .. كانَت رقصَتهُ خَفيفَة ، يدورُ فوقَ رأسي .. يعبَثُ في الأزرَقِ ، يُشَتِتُ الوجومْ .. أُرْجُوحَتهُ الريح .. و مَلعَبهُ الشَجرْ !

يا لَيتَني كُنتُ الأمان لهُ .. لَبَنيتُ مَسكَنهُ ، في قَفصِي الصَدريْ!

سَوفَ أجتازُ الرمادِ ، و أصعدُ أبراجَ النارِ .. لا يَعنيني الوعدُ النازِفُ و لا موعِدُ الصَدأ ، اني حُرٌ رغمَ مُصادَرةِ الجُنحانِ من ظَهريْ .. سأعبرُ هذا الحاجِزَ و أدَّويْ وُصولْ ، و أدورُ المدينَةِ أزرَعُ البَنفسَج على أعتابِ الصَحوِ و أسمو ، سأنسِجُ من صَمتي أُغنية ، و أُهدِدُ الصَمتَ و أبَدِدَ الدمارْ و أردِمُ الحُفَّرْ ..

هذا الرَعدُ الصاعِدُ من غَضبِي .. مُتَقِدْ ؛ يَدعونِي لأسعَى نحو

مآذنَ فَجرٍ خَجلَى من تأخُرِ إقامَةِ الصَلاة .. قَدمايَّ بِخفَّةِ ريشٍ لا يَطالُها لُغمٌ ولا قَناص يَحْبِطها ..

سأعودُ إليكُم ؛ حينَ أَزُخرِفُ جُدرانَ البيتِ و أرفَعُها الأبوابْ ، و أرتِّبُ أرفُفَ هذا القَلبِ و أُشبِعُها صوراً لِمَن غابْ ؛ أهلٍ ، صَحبٍ و أحبَّة ، و أرفَعَ رايَتي سُلَمَاً جديراً بالذكرِ أكبَرَ من مَحضِ انتفاضَة ، تحصُد منكم الملاجِئَ و تقتَفي من دَمكم أثَرْ ، و تجمَعكُم بأمرِ دُمُوعِيْ ،في الموعدِ البَعيدِ قُربِيْ ، أو الأقربِ من بَعيديْ بَعدَ عِيْدِي .. وليسَ بِتُهمَةِ قِمَّة تَعي عجزَها عَن الكَلام ؛ من غصَّ منكم ، مَن غضَّ النَظرَ .. مَنْ ماتَ مِنكُمُ ، أو من حَضَرْ !!

× × ×

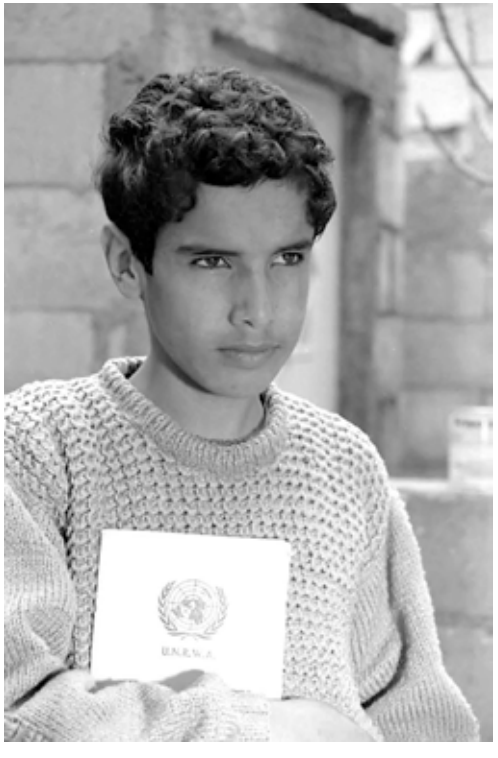

أنا شَهقَةُ الأرجوانِ البريئَة التي لن تَنتهِيْ ، و إبتداءُ المَواسِم .. صَلاةُ السَنابِلْ!

في دَفتري قيَّدتُ حُلمي ببَيتٍ تطوفُ حَولَهُ أشجارُ الليمونِ ، و تُحَلِّقُ تحرسَهُ نوارِسُ بلونِ الذَهبْ ..

سَجلتُ اسميَّ بالحُروفِ ، فوجدتُها تنهَضُ من صَفحاتِي أرقاماً لا أفهمها ! مَن كَتبها..؟ سألتُ و لم يُجبني أحَدْ ..

لَم يَستدعكِ يا رموزَ الموتِ نَورَسي ، فمِن أيِّ الجِهاتِ انبَثَقتي ؟ هكذا أجبتُ ، فراحت أشجاري تتقصَّفُ و البَيتُ يدورْ ! و نَورَسيَّ الأبيضَ الوحيدُ اصطادَهُ .. القَدرْ!

ضَاقَت بِي الصَفحة ، و بدأت تحترقُ أطرافَ الدَّفتَرْ و تجَّعَدت الحقائق و طُمسَت الملامحُ من الصور ، حِرتُ بأمرِ الكابوسِ ! غضِبتُ و كَبرتُ في الأرجوانِ كشَهقَة ، و أعلنتُ مواسِمَي إنتهاءْ ، .. رُحتُ من غضبِي أخربِشُ على الرَسمِ ، حين استعصَى عليَّ إمساكُ القلم لتقويمِ أسُسِ البيتِ و استعادَةِ الربيع على غصونِ الشَجرْ ، أخذتُ من دَمي أحمرا قاتِماً و طَمستُ الرَقمْ بإمضائِيْ ، بَعثَرتُ زواياهُ الحادَّة و إنحناءَ العَجزِ في أشباحِه .. بَعدَها ؛ دَخلتُ البيتَ آمناً من تُهمَتيْ ، مُتخفِفاً من الفُصولِ مضيتُ أَقطِفُ مَشهَدِيْ ، و أسمَعُهُا خَفيفَةً ، تمرُّ قُربَ عينيَّ السَنابِلُ و النوارِسُ .. جميعُها تُصلِيْ ..

سأتلو على مَسمعِ الفصلِ أياتِ حِفظٍ ، و أرجو السَماءَ أن تُضِيءَ بعيداً !

أيا طائراتٍ تفوقُ حجمَ الطيورِ ، أضيئِي بعيداً بنارِك ، فنحنُ العصافيرُ نرنو بينَ الغصونْ .. لا تَخافوا الصَوتَ يا رِفاقِيْ ، هذا غضَبُ السَماءِ ، سَتبرقُ عمّا قَريبٍ و تُرعِد ، فلا تَبكوا فَتَبكِيْ الغيومْ !

إنَّ الدُخانُ الذي ما استقرَّ قَريباً من صُدورنا ، هوَ شَهقَةٌ من عَنقاءُ أُرجوانيَّة اللونِ تشَّكلت من صَلواتِكُمْ و كَثيفِ الحِصارْ، كَي تُناديْنا لغَفوٍ أمينْ .

تعالوْا بِقُربي أدَّثِرْ انقباضَ قلوبكم و أحملْ عنكُم ثِقَلَ تصَّورِ ما الآتي بعدَ الصَحوِ الأخيرْ.. وَ اني سأبقَى أتلو .. على مَسمعِ البِلادِ آياتِ حفظٍ، و أصعَدُ بالصَوتِ نحوَ المساءِ و أطفئُ كُلَّ إنفجارٍ يؤرّقُ نومَكمْ .. سأمنَحُكم جنحاناً أكبَر مما لديكُمْ و أجمَلْ .. فإنَّ الأشجارَ هُنا تكسَرت و ما عادَ لَكم بيتٌ يأوي صِغارَ أحلامِكُمُ ، لم يعُد هُنا وجودٌ للصَّف الذي سيُجمِعُ أمنياتِكُم بامتحانٍ سَهلٍ و سؤالٍ يَسيرٍ و نَجمَةٍ ذَهبيَّةٍ على الدَفترِ أو في الجَبينْ ، ما عادَ لَنا مدرسَةٌ تَجمَعُنا في ساحَتها كَي نَلعَبْ .. و لا ممراتٍ نسرقُ الخطوَ فيها و لا نتعَبْ !

.. نحوَ الجَناحِ الأكبَرِ سيروا .. بانتظامٍ تقدموا ، اجتازوا حدائقَ الدَّمِ وَ وشوشَةِ القُنبلة ، اقفزوا عن شائكِ الكَلامِ ، تخطَّوا الرصاصِ الكَثيفِ ، و اسكنوا سَلامكُمُ الليلكيِ .. أغمضوا عُيونَكُم كَي لا يَنتابَني البُكاءْ ؛ هُناكَ في الجَنَّة ، دقَّت أجراسُ الحِصَّة .. عَجِّلوا ، استقبلوني بَينَكُمْ .. نَجحتُ ، بَرائَتيْ في الخاصِرَة ، و علامَتيْ أتممتها مُهمَّتيْ .. كاملة ، صَفقوا لِيْ .. نِلتُ الشَهادة.

ما عادَ للدارِ نوافذ كَي نُوصدَها في وَجهِ النارْ!

كيفَ للبابِ أن يصمُدَ أمامَ قَنبلَةٍ ، عزَّ عليها السِلمُ .. فانفَجرتْ !

صادَرت عن دارِنا الرقمَ ، و عجَّلت الدخولْ .. أيُّ جُدرانٍ ستحملُ صُورتي خريجاً ، رافعاً رأسَي و مُلتَفَّاً بِرداءٍ مُطرَّزٍ ، بألوانِ العَلمْ ! ضاقَت الرفوفُ بِحَمل وجوهِ اخوَتي ، ضِمن إطارٍ أسودَ ، و ترتيلَةٍ لفاتحَةِ الأمانْ ..

وجهَتُنا معاً .. درب أخضَرُ ، و هُوَيَتُنا تينٍ و زَيتونْ ، في طابورِ الصَاعِدين إلى السَماءْ!

أنا لَستُ أدري أيَّ ألعابي سأخُذُ معي ، خِلالَ ثانيتينِ يَنبغِي أن أحملَ عُمري كُلَّهُ .. بيدينِ صَغيرتينِ و كاهلٍ ضَعيفْ !
هذا كِتابي الذي لَم أُكمِل حِفْظَ دَرسِهِ الأخيرْ، و دَفتري المُتخَمُ بالنُجومْ .. و ذاك قَلمي الرصاصِيُّ المَبتورْ ! و مِمحاتِي الجَديدة ..

تلكَ كُرَةُ أخيَّ الكبير، الذي أجادَ التهديفَ و كانَ الأول دائماً ، حتى أنهُ تَجاوَزنا ، باتَ الأول في سيرَةِ الراحلينْ!

هذهِ ورودُ صَغيرَتِي التي.. ، لَم أنجِبها بعدُ .. و لَم أختر لها اسما بِها يليقْ !

ما عادَ للدارِ نوافذ ، كَي نوصدَها في وَجهِ النارْ ! مالَ سَقفٌ و انتهى قُربَ المَصيرْ، عزفَ الجيرانُ بِصَدى بُكائِهم .. تَفعيلَةً للونِ المنارَةِ، كَي تُضيءْ .

و الأصدقاءُ أتوا لعُرسِنا .. أتَّموا تَوزيع الورود و قبَّلونا في الجَبينْ!

أما داليَةُ الشُرفاتِ فارتَفعَتْ ، بعثَرت الرمادَ و انبثَقت من قَلبِ الضَبابْ واثقة ، اعتلَت أكتَافنا و تشَّعبت كالشَراييِن في الأرضِ .. و أثمَرتْ .

وَ ياسَمينَةُ الحيِّ الدائمَةُ ، في كُلِّ المواسِم لم تغبْ عن الوَصف ، تلكَ المتشابِكَة كأعصابيْ قَبل بذلِ النداءِ الأخيرْ.. سرَّبت نُوّارَهَا نحوَ قِبلَةٍ و صَلاة ، و اعتَلت وَجعِيْ ، تربَّعت عِنْوَاناً للمَشهَدِ، الذي اختتمَ الحريقْ !

نَظرَتي ليسَت ساخِرة ؛لستُ ساخِراً ..
تحاسِبونَني على ابتسامَةٍ زَرْقاءَ ، أطلقَتُها خَطأً .. دون إنذارٍ ، ذاتَ مشهَدٍ أحمرْ !
ماذا تُريدونَ من مَلامحِيْ ، أُوجِزُ في سُطورِ جَبيني القَصيدْ .. و أكتُمُ في قلبِي الحُروف ..

لا أكترِث للصُراخ الذي يدخلُ مَسمعِيْ ، وحْدَهُ الحَمَام يُحدِّثني .. عن عُشٍ بناهُ على غُصنٍ لَم يأمنْ أحلامهمْ!

نَظرَتي .. ليسَت استثنائيَّة ، هو الوَجَعُ يلمَعُ من أدمُعِيْ .. جُفوني مُثخنَة بالرمادِ ، و رُموش العينِ كحَّلها الغَضَبْ !

أنا لَم أبتسِم فرحاً ، لتحاسبوني على الشُعورِ !
و تُحَققونَ بأمرِ سِنِّيَ اللبنِيَّ الذي صَمدَ ، لأكثَرِ من خَريفٍ و لم يَسقُط !

إنَّ ابتسامَتي لا إراديَّة .. صَدقوني ، ألستُم من صادَرَ عنَي الوُجومْ ، و أطبقَ على حُريَّتي .. في المُعتقَلْ !
فكيفَ سأعبسُ في وَجه شاشَتكم المُفَخَخة ، و أنا المُحاصَرُ ضِمنَ ابتسامَة مَنقوصَة و أسئلةٌ صَعبَة ..!

نَظرَتي ليَست ساخِرَة ، لَم أبنِ في الخَفاءِ مُؤامرَة ، حَسبِي دفاتري ألوانٌ و صوَرْ ..

هذه أميْ ، أُمسكُ بيدها منذُ ضيَّعتُ دَربَ الصُعود ، و أتممتُ بِنجاحٍ ردمَ الحُفَرْ !

هذا أبيْ .. خرجَ ذاتَ مَساءٍ كَي يوقظَ الشَمس ، أيقَظ الشمسَ .. بَلى ،، و لكنهُ من التَعب .. نامَ على ظَهرِ القَمرْ !

هُم أخوَتي .. كُنَّا نلعَبُ الاختباء ، و كُنتُ أعدُ بأسمائهمْ ، انتهت مُهلَتي و لم أجدهُم .. بَحثتُ ولم أجد إلا ظِلالهُمُ ، ما حدَّثتني و لا طِلتُها بِيَدِيْ ..فكنتُ الخاسِر أبداً ، ما رَبحتْ !

صَدقونيْ ، نَظَرتي ليسَت طارِئَة !
كَي تكونَ عنواناً عاجِلاً ، في اجتماعكم الأمنيَّ !
هل تستحِقُ نَظرَتي .. إطلاقَ صافِرةٍ و دَويَّ إنذارْ ؟ و تَصعيدَ أمريْ السلميِّ و مَطلبي الصَغيرْ في مُؤتَمرْ !؟

هل يحتاجُ نِظامُكم الفوضَويُّ إلى إشارَةٍ منيْ ، كَي يُبيدَني وسعَ حملَةٍ أمنيَّة.. حاصَرتُ الخَرائطَ في دُروبٍ كَفيَّ ، و ضيَّقَت على قَلبيْ .. اعتَصَرتهُ ، و صَوبَت نحوَ الدارِ بالنارِ ..؟

صَدقوني إن شِئتُمْ !
عُمري ؛ ستُ ربيعٍ و نِصفْ ، لماذا النِصفْ ؟ لأنَّهُ منذُ آخر هديَّة .. أتَى بها أبيْ كان ذِكرى ميلادِيْ ! ، أتممتُ السادِسَة ، و لم أبلُغَ النصف الأخيرْ..

طوليْ ! أقصَرُ من زَيتونَة البيت ، و أكبَرُ من وردة الجوريْ ! تَقريباً .. أستطيعُ بِناءَ برجٍ كَبيرٍ.. كَبيرْ، كما و أستطيع أن أهدِمَه !

وَزنيْ ؟ أظنُهُ صارَ أقَلْ .. لم أتذَوق مُرَبَّى البرتقال هذا الصَباح! و كُنت قَد فوَّتُ أمسُ و قَبلَهُ ، ما اعتادَت أن تُعدَّهُ أمي من الزَيتِ و الزَعترِ و الزَيتونِ .. وجبَة العشاءْ .
أمريْ ؟ حائرٌ و سائرٌ .. هذا بَيتي المَرْفوع على أعمدَةٍ من الحُلم و لَستُ أسكنهُ ، تلكَ السماء الزَرقاءُ لي و لستُ أطالها .. خَفيفة خُطوَتي و قَلبي ثَقيلْ..! شاحِبٌ دَميْ ، لَستُ جائعاً .. أكيدْ !

جَيبيْ ؟ زَهرُ ليمونَة لم تَحترق ، بَيضاءْ .هذه صَفحةٌ من مُصْحَف جَدِيْ !و هذه ساعَةُ أبي .. مُعطَّلة ! لا عقاربَ بها ولا بوصَلة !

الخاتمُ الذَهَبيُّ من أميْ ؛ لَستُ ابيعُهُ لو متُ جُوعْ !؟ لأنهُ لأميرتي سَيكونْ ! هذا ما وعدتُها حينَ أكبرُ ، تلكَ الحَبيبَة التي كنت سَألتقيها .. قَبل أن يُفَخَخَ حُلمي و أنزِفَ قُربَ بابِ بيتِها زَيزَفونْ !

هذه سكينْ ؟ أتراهُ .. كَي ..

أنا لَستُ ساخراً ! هذه نَظرةُ الوعيدْ ،

هَل أجبتُ على مَحضرِ ادعائكم ..

بأجوبَةٍ نموذجيَّةٍ سَليمة ؟

صَوَّبتُم إجاباتي ، أم حِدتُم في تَحْقيقَكم معيْ ، لا فرقَ عندِيْ ..

لا بديلْ !

هَل أُعيدْ .. أم أزيدْ ! انا لستُ ساخراً .. هذه نَظرةُ الوعيدْ ، سترونها .. اليومَ و غداً ، و كُلَّ عيدْ ، في عينِ كُلِّ فَتيٍّ يَحملُ سِيرَتي ..و في كُلِّ صَفحَةٍ يُسَجَلُ بِها .. وَليدْ .

أُلوِّحُ للمغادرين .. لَو يَسمعونيْ !

إن يَرفعونيْ إليهُمْ .. فأمضيْ بأخضرِ ما يكونْ ، فاني تعبتُ البقاءَ .. على حاجزِ الصَمتِ ، و جُوعِ الحِصارْ !

أَلوِّحُ لَهُم ، لَو يرونيْ ..

و أرفَعُ يدي عَالياً ، عَلّي ألقَى بِطَرفِ فَسَاتينِ أفراحِهمْ .. أكونُ وسَطَ أعراسِهمْ ، أتعلَّقُ بِها ، تِلكَ الجُنْحانِ العَريضَة .. و أطيرْ !

تَلويحي .. ليسَ للعَائدينْ ! فليسَ هُناكَ من فاتحينْ .. ، تأخروا جداً !

لا أراهُمْ .. أينَ هُمْ ؟ تاه القِطارَ الذي يُقلهُمْ ؟.. لا بأسَ .. سَفرَ السَلامة أدعو به ؛ لَهُمْ!!

إني مَكثتُ طَويلاً ، و عَجزي طالَ المَسيرْ.. مَواعيدُ سلمي تَكَررت ، وَثقها الجرحُ في صَدريْ .. يوم فُتِحَ على الصِراعِ و سُد في وَجهيْ الشراعْ !

لهذا تروني .. أمُدُّ سَلالم أشواقيْ و أبوحْ ، لغيوم كالقُطنِ .. كَي أدِّثَرَ دَمي النافر ، و أُغطينيْ ! هذا البردُ يَتَسَللُ عِبرَ جُروحيْ ! .. و ثَلجٌ يَصعَدُ فوقَ نزوحيْ ..

تروني أمدُّ يديَّ عالياً .. نحوَ النجومْ ، لأتأكد من عَدَدِ أضلاعها ! ، أحصَي ؛ خَمسَةٌ ، ستةٌ ، سَبعةٌ .. هل ضُلوعيْ في مكانها .. رُدِّي عليَّ يا نجومْ !؟ عددُها غيرُ معلومٌ .. لَو أقطفُ شُهُباً .. أركَبُها للأعالي ، رُبما هي مثليْ كانت كَينونَةً واحدةً و انشَطَرت وسعَ الكونِ و باتت نثاراً .. يواكبُ صدَّ الهجومْ ! و أُداري مِثلَهَا تعبَي ، تلكَ البقايا الكونيَّة ، فما عادَ الوَجعُ يَجمَعُنا ، يشَكلُنا مَلائكَة .. بَعَينينِ و جَناحْ ..!

ساعِديني .. كَي أمُدَّ يديَّ ، أنتِ ؛ يا مَن تشكلتِ مِن هذيانيْ تُلاعِبينَ أعصابِيْ و تطوفينَ فوقَ عينيَّ بريقاً لا يَنحصِرْ ، على

هيئَةِ عصفورْة أراكِ ؛ ساعِديني.

إنَّ النورَ باتَ بَعيد .. و هذا الدربُ مُفَخَخٌ بالأنانيَّة و الموتِ المجانيِّ يوزَعُ دونَ عدالة ، فقَد يحصُلُ بعضُنا على أكثَرَ من مَوتٍ مُغَلَّفٍ بورقِ هدايَا و أُمنياتْ ! لا مفرَّ من النَومِ العَاجِلِ ، لا مَجَال لاستدعاءِ أَحلامٍ ..باتَت مَحضَ وَصيَّةٍ آجِلة..!

احمِلي يدي و ارفَعيها نَحوَك .. هذا ثَوبُ أُميْ ، أعرِفُهُ من لونِ دمها الأخضَرِ النازِف ، أُتقنُ تَقَفِّي عَطرها الأشبَه بزَهرِ الليمونِ .. ، انها تُلقيهِ من نافِذَةِ جَنَتها ، إليَّ .. تُناديني !

أَغيثيني .. يا عُصفورة المَشهَدْ ، وَ دُلي لِكَينونَتي مَلجأ .. فهذهِ الرُوحُ أَنهَكها المُثولُ قُربَ حَربٍ لا ترحَم .

لَن ألوِّحَ بعدَ الآنَ لأَحَدٍ يا عُصفورَة ، فالسماء أوصَدت أبوابَها بَعديْ ، قَد طابَ الخُروجُ من أَنفاسِيَّ المُتعبَة و التَشَبثِّ بأحبالِ الصَدأ ، يَكفي أن المُغادرين سَمعُوني ! ، يا أَمَّاهُ .. ، يا عُصفورَتيْ .. لَبُونيْ ..

للأراجيحِ الشَفيفةِ .. في الأفقْ !

أصدَحُ بأغنيتي .. أفَجِرُ الصمتَ ، نُطقْ !

ذُهولِيْ التماعُ النبضِ في عينيْ ، و نبضِيْ تخثَّرَ بعدَ الدفقةِ الأولى!

أنا لَم أُتمِم عامِيَّ الأوَل ، لكِني هَرمتُ في المَشهَدِ ، و سَكنتُ اللجُوءَ إطاراً و تَعبْ..

هذا احتِمَالُ الرَعدِ ، قِيلْ ؛ أبرقَت غَضباً و كانَ المَطرُ نارْ .. نَهْضتُ من رمادِي لأسألْ : كيفَ أطفأتُمونِيْ !؟

هذهِ مَلاعِبُ طُفولَتِي ، أُشكلُهَا قِبَاب ، و أكتبُ بأصابِعِيْ أولَّ حرفٍ من اسمِي على رِمالها .. وفي عميقِ بِئرَها خَبأتُ سِرَّ بِناءِ القَلعةِ الأمتَنْ ..!

و تِلكَ الأراجيحُ كُلُّهَا لِيْ ، كُنتُ أصعُدهُا للسماءِ السَادِسَة ، أُلقِي التَحيَّةَ و أَشواقِيْ ..ثمَّ أعودُ سِلالِي مُتخَمَةٌ ؛ بالوَصايا و الرُؤى

ألقَى النُعاسُ عليَّ اعتراضَه ، سألتُهُ : لماذا ؟

قالَت لي العَنقاءُ ، انهَضْ من ادعائكَ المَوتَ ، لم تمُت بعدُ .. لمْ تَنتهِ ، لا بُدَّ من دَمٍ إحتياطيٍّ في جَبهتِكَ ، أعصابٌ لَم تتشابَك فيكْ .. ما زالَ في القَلبِ انتفاضَة !

أبعِدْ أنقاضَ الدارِ عن رأسِكَ ، أغلِق على جُروحِكَ بيَديكْ .. أنفُض الغُبارَ عن عَينيكَ .. امسَح نزيفَ وَجنَتيكَ ، و ابتَسِمْ ، اعضاؤُكَ الحيَّويَة ما زالَ فيها من الرُوح ؛ عَلامَة !

إنه وقتُ قِيامتِكَ .. الكَبيرة ، يا صَغيري ، انهَضْ ! كَي تكتُبَ سِيرَةَ العَزمِ ، و تُلقيها قَصيدةً على مَسمعِ الدُنيا ، مَوضُوعُها الوَطنُ ، و خِتامُها تَصفيقٌ لا يَمَلُ ، وسامٌ على كَتفِكَ .. و شَهادَة !

أرسُم على جُدرانِ حِصَارِكَ بأصابِعِكَ النَحيلَة ، بصمَةً لن يَمحوها المَطرْ .. انهضْ لِتَزرَع أعتابِكَ بالسنابِلِ ، و تزخرِفَ نوافذَكَ بالورد ، كما وَ حَان مَوسِمُ قِطافِ الثَمرْ .. مَن سَيُؤمِنُ للبَيتِ زيتونَهُ بعدَك ؟ انهض لِتُسيجَ أَسْوَارَك ، لِتُلمِّعَ مَفاتيح بابِك .. فإنِيْ على مَوعِدٍ .. سَأتيكَ مِن دَربِ السَلامة ..

صَعدتُ إلى أعلايَ فَرحٍ ، ألقيتُ خُطْبَتي على المَلأ ، هَمستُ في آذانهم .. سَأُطاردُ الحُزنَ المُداهِمَ داركُمْ .. فقَط سَلِمُوني مَفاتيحَ أزمَتكُم ، ومِنبَرَ الكَلامْ!

تعالَت بهيَّةً سُطورُ العَتبْ .. و طارت عناويني فوق السور ، مهَّدَت لِرُؤاهُم سَلامْ .. فكم صَفحَةً سَوف نُمَزِّقُ من سِيرَةِ الحُزنِ و نأكلُهَا ذاتَ جُوعٍ ، أو نَطويهَا عُصفوراً و نُطلِقُهُ في المَدى كَي يُشَكِّلَ من صَوتنا صَلاةً ؟

تلَّبَسَنَا صَمتٌ أزرَقُ شاسِعٌ ، غَرِقنا ضِمنَ متاهاتِ الوُصُولِ وليسَ من نَقطَةِ بدءٍ أو مَسارْ .. و انبعَثَت في أوَّلِ الشَهقاتِ صُورَتُنَا ؛ نُجومٌ في السَديمِ ، صَورَني المُراسِلُ كما يَليقُ بِخَبرٍ عاجِلٍ ، و كَتبَ أَسْفَلَ الصُورةِ «طِفلَةٌ مَدْمُوغَةٌ بالحَربِ» ، مَن يدفَعُ لِيْ كَي أُغيِّرَ مَلامِحَها ، كي أُلونَهَا .. و أمحُو عن قِصَتِهَا الـ «تَعبْ» !

سَأهمِيْ صَاعِدةً .. أعلى من الفَرحِ الصَغيرِ لأكبَرِه ، أعلَى من أمِّ العَصَافيرِ كُلِّها .. ، فانظروا سُقوطِيْ شِهاباً .. أو طَلقَةً ؛ شَحذَتْ هَواءَ السِلمِ و اقتَبَستهُ ، كَي تُعيدَ تَرتيبَ ما أَنِفَ المُصَّورِ ذِكرهُ .

لَمستُ بأصابعي ضُوءً أكبرَ من شَمسٍ ! احترَقتْ أَصابعيْ .. ؟ أم أنني ما عُدتُ أرَى؟لو تُفَّسرونَ لي سِيرَتي ، من تُراهُ يَشهَدُ معِي ذات المَشهَد .. يا تُرى ؟

عتَّمَ الفَصلُ سَتائِرَهُ .. هَل انتهَى..؟ ، أو هذا ابتداءُ تاريخ البنفسَج !؟ ، قيلَ إنَّ الوردَ زفَّ خُطوَتي ، سوَّرَ الجَبهَةَ و أكتافَ المَدى ..تَمادَى في اكتناز جَسَدي ، خطَفَ شُحوبيْ بزينَةٍ ، طالَ شَرايينَ ما تَحجَّرْ من شَهقَةِ الدَّم .. و تكاثَرَ قُربَ القَلبِ ؛ سَكن الحُجراتِ فيهِ و ترَّبعَ ، خطَفَ سِيرَةَ الرَمادِ من الذَاكِرَةِ ، قِيلَ ...

إن الوَردَ تمادَى ! صَعِدَ بي نَحوَ العُلا ..! و سَمِعتُ زَغَاريدَ أهالي الحَيْ ! يُثنونَ على الوَردِ .. أَسمَعهُم يَقُولُونَ غَالٍ و عَالٍ ... أم أنَهُمْ يُنادُونَ عَليّ ..؟

كَبُرَت أضلاعي و تمَّدَت كالأغصَان ، أزهرتُ رَبيعاً .. وَددتُ لو أقطِفُ ثَمرَ الرَّمانِ و أحمِلُه بيَدي ! و حينما وصَلَ البردُ شُرفاتِيْ ، دَثَّروني بالمِسكِ ، و تركوا شُرفة الجُرحِ مَفتوحَةً ..و الوردُ تَراجَعَ الهُوينَى .. و تفادَى النَزفَ قصداً! خَوفاً أمْ غَيرةً يا تُرى ..

سَألتُهُ يا وَردُ ، لمَ تُقاوِمُ اللونَ مِنيْ ، اصعَدْ على تعبيْ و اتَّبع سيرَةَ الأرضِ الخَضراءَ و أحطنِيْ ؟ خَجِلَ و مال .. تبعثَرُ احتمالْ .. خَفَضَ بتلاتِهِ إليَّ ، و راح يَقصِفُ من عِطرِهِ ، يَبكِيْ و يَنظرُ إليْ .. ماذا حَصَل يا وردُ ، هل انحنَيتْ ؟ .. مهلاً ؛ أينَ أنا .. بِتُ ورداً ، و تعالَيتْ .

أنا ابنَةُ الأشجارِ، و حَفيدَةُ الوَجعْ .. لَم أسأم الصُمودَ ، لن أنحنِيْ مهما التعبُ تسَّلقَ كاهلِيْ و صَعدْ ..

قاومتُ مُنذُ الشَهقَةِ الأولَى مَواجعِي ، و حَمَلْتُ في قَلبِي البِلادَ كُلَّها ، أنا لم أغادِر دارِي ، و لا الرِفاقُ غادروا .. هو انفجارُ الحَّيزِ الأسودِ قُربَ مَجرَّتِي ، ثَقبَ الرؤى و تَمادَى!!

لِي وردَةٌ نهضَت تُقاتل ، زَحفَت نحوَ الشَمسِ و لم تخشَ الرياحْ ، أنا عَودَةُ الطِفل المُريبِ بِحُزنهِ و تَهمَةُ الغَريبِ باسمهِ ، حينَ تتجلَّى صَرخَتِي صُنعَ القَرارْ ..

تَبدو المسافَةُ شاسِعةً ، الأخضَرُ ضاقَ بِي عندَ المُفترَقْ ، فتركتُ فساتينَ فرحِي الليلكية و اتشَحتُ الأسودَ خَلاصاً .. و لجأتُ قُربَ الذاكِرة أقَّلبُ الحِكاياتِ و قُربَ أبطالِها أَستريحْ !

لو أستعيدُ ما تبقَّى من صُوَر ، أخطو بِخفَّةِ خُطوتِي نحوَ الوُعود ، أنا ما اخترتُ النهايَةَ و لا الأبَدْ ، حَسبِي عَشقتُ التُربَة الحَمراءَ و تَنَفستُهَا ، حَبستُها في الرئتَينِ و دثَّرتُ فيها قَلبِي المُرتعِشْ ، خانَني السَلامُ الذِي قَضيتُ لأجلهِ هَديلِيْ ، أنَا صُنتُهُ .. و لم يَومَاً .. أَخُنْ .

قَسمتُ عادِلَةً بينَكُم ، خُبزَ الحِنطَةِ و الزَيتْ !هذا التينُ الحُلوُ .. و خَيرُ المِيناءْ . مَنحتكُمُ الدُعاءَ مني وَافِراً ، و أقمتُ الجُدرانَ كَي تَدخُلَ أحلامُ أطفالِكُم أَمنةً ، و قَرَأتُ عليكُم قِصصاً تَكَدَّسَت في رُفوفِ قَلبي .. عذَبتها الوَصَايا .. ، و مَنحتُكُم إسمِيْ لِتَدخلُوا الجَنَّة دُونَ خَطايا ..

لا تَسألوا عن تَفَاصيلَ خلَّفَت وراءَ نَسجِها عَتبْ ، إني أقمتُ سُطوريَ مُتَشَابِهاً عليَّ الوَصفُ بالتَعب ..!
هذهِ المَسَافاتُ لِيْ أنا ، السَماءُ القُرمزيَّةُ و الشمسُ المُختالَةُ

بالذَهب ، بُرتقالُ البيارَةِ و حامَضُ الليمونِ لِيْ ، .. أقسَمتُ بإسمِ ربِّ السَنابِل ، أن أكونَ أمَّكُمْ .

وَحدتُ حَبي فيكمُ ضِمنَ حُدودٍ و نَثَرتهُ ذهباً عليكُم ، فَسَقطتُ مَغْشيَاً عليْ ! نادَيتَكم يا أحبَّتِيْ ، فلْتسندونيْ ، و مَضَيتُ عُمري أَتوكأ عَصايَّ .. مَرفوعَةً رأسِيْ ضِدَّ الحَواجِزِ ..

ماذا تبقَّى الأنَ و قَد تَكَشَفَتِ السَماءُ و إتضَّحتْ جُيوبِيْ خَاوِيَّةً ! مَفْتونٌ هذا الوَجعُ بِي ،.. منذُ تجزأتُم و أبتدأتُم اللعبَ بالنارِ و احترَقتُمْ ! ، أنا مَحضُ خَيبتينِ موثوقَتينِ دونَ بَصمَتِيْ ، و جُرحٌ قاسِمٌ في الظَهرْ ، هِي طَعنَةٌ قاتلةٌ لكنَّها لم تُنه منيْ الدَّم ، أعصابِي مُفَخَخةٌ بالدعاءِ ، و كلماتي ما قَبلَ الأخيرَةِ إليكُمْ .. ، يا اخوَتِيْ ، استعيدوا البِلاد ..

× × ×

لستُ أملكُ ما أُقدِّمهُ لعَينيكِ .. أنتِ ابتداءُ الحُب و إنتهاؤهُ ، على
أثيرِ ابتسامَتكِ ، أَقَمْتُ عنوان مَلحَمتِيْ .. و صَعِدتُ و على أصدائِهَا
، توَّجتُ جَبيني بالنَصرِ .. لقَد صَمدتْ .
هَلْ تَقبلينَ مِني الجُرحَ المَفتوحَ على الضُلوعِ ، بَيتاً؟

لو تَقبلَينَ السلمَ مني تَميمَةً ، عِقْدَاً و تاجاً من سَنابِلْ؟
هَل تَقبَلينَ عَودَتيْ رَمزاً .. أو صُورَتي دونَ تَنْهيدة ؟
أنا لَستُ أملكُ ما أقَدِّمَهُ لِعَينيكِ .. أنتِ لي وَطنٌ أقَّدسُهُ ، أحيَا
لأجلِ الوَعدِ فيكِ ، و أفديكِ .

لَكِ مني التَحيَّةُ و السَلام ، لَكِ مني وُعُودي بِالتَبَّسُمِ .. بِالوِئَامْ .
هَل تَقبلينَ القَصائدَ الوَطنيَّةَ مَهْرَاً لعُرسِك ؟
و أشجارَ الزَيتونِ قَابَ قَوسَينِ سِياجاً لأَمنِكْ ؟

إني و اللّه ، في عَينيكِ أقمتُ مَلحَمتِيْ ، و سَقطتُ في حُبِّكِ يا
فِلسطينَيَّةِ القَدِّ .. شَهيدْ !

أدمَنتُ تَجَّرعَ المَتَاهِ ، و القَبولَ بأقَلِ امكانياتِ المُباحْ!

أبارِكُ للشَهيدِ زِفافَهُ ، و أنثُر الوردَ ليفترشَ طَريقهُ للسماءْ .. أمٌ أنا ؛ أطفالِيْ العُشرونَ وَهبتُهُم للطيورِ ، قَبل أن يَكبُروا قدَّمتُمُ بَراعِمَ لم تُثْمِر بعدَ احتضارْ .. عُمري كذبَةٌ صُودرت بإسمِ اللجُوءِ ، مُؤقَتٌ ... أبديٌ ! .. و أرقامي صَعبَةٌ جِداً .. لَيست ضِمن الرَسمِ المُباح!

في جُيوبي عَشراتُ المَفاتيحِ ، أينَ تحتَ هذا الرمادِ تقبَعُ الأبوابُ .. أينَ النوافِذُ و المَلاعِبُ .. و البساتينْ ، و موائِدُ الفَرحِ ، و الميجَنا ..؟

أمٌ أنا لِمْليونِ عُصفورٍ تَمادوا في الإرتقاءِ ، لم أنثَنِ يوماً عَن فتحِ أزرارِ الدُعاءْ .. هذا مَجالي و احتمالُ النَبْضِ بِيْ ، لأجلِهم أقمتُ مَراسِمَ الجَنيِ و صَعَّدْتُ الهَديلْ .

كلُ أحزاني تَهُونُ حينَ أخرجُ في قِيامَتي ؛ أُمَاً ، أُنَادي أطفالي كَي نختار أُغنياتِ المَساءِ و نَرويهَا بِشهادَةِ نَجمتينِ و قَمرْ ، كُلٌ باسمه أُنَاديه ، أُهَدهِدُ خَوفَهُ فيه ، لم أُخطئ يوماً بهمْ .. أعرفُهُم جَميعاً وَحدي مَن أفَرِّقُ بَينَهُم .. أُبَاركُ لهُم تقدُّمَهُم نحوي ، أَمنَحُهُم بَركَتيْ .. أحتويهِم جَميعَهُم ، فيدايَ بِحجمِ البِلادِ .. ، و قَلبِيْ كَبيرْ!

علَّمتُهُم هذا منذُ تسَّلقوا السَلالمَ نحوَ الأنبياءِ ، أن فلسطين لُغَةٌ و انتماءْ ، كيفَ لي بعدَهُم حَمامْ .. كيفَ لِي بِبُعدِهم هَديلْ ؟

هل التَقَطتَ لي صورةً تَليقُ بالألمْ ؟
يا أيُّهَا المُصور ؟ هل أَجدتَ اختيارَ الزَاويَة .. و العَدسَة التي تَليقُ
بِحَجم لَمعانِ عَينيَّ ؟ كَي تعرِضَها على الأُمَم؟

مِنْ هَذه الجِهَة سَتبدو مَلامحَ الوجع أَوْضَحَ ، في جَبهتي استقَرَت
الألوانُ كُلُّها ، و لَم يَنجُ من أحمر دَميْ أَحدْ ؟
مَاذا تُريدُ بَعدُ .. أن تُوثِّقَ بالصَوت سيرَتيْ ، و تَخُطَّ بالترميز
تاريخَ الغُروبِ الأسوَد ، كَي تزَيّفَ الأبدْ؟

ما بالُكَ تُحيطُني بِالذُهول ، كأنَّكَ الجَريحُ و حَضرَتيْ المُلام !
أَتقبَلُ بالإيماءَة يا أخيْ ، ما عَادَ يُسمَعُ مِني الكَلامْ !
تُريدُ من اسمي المَقْطَعَ الأخير، مَاذا عَن الأول .. هَل يَنفَعُكْ ؟
وَثيقَتيْ ؟ رُتبَة الحُبِّ ؟ و الدِينْ .. مَواعيدُ صَحويَّ و المَنامْ ؟
أنا ابنُ هذه التُربَة السَمراء ، و أَنتَ لهذا اللونِ النَازِف تَدين
تَكويناً و زَيتوناً !
أُختي ؛ صَعدَت إلى الشمسِ كَي تقطِفَ الذَهب سَلاسِلَ و أَساوِر ، و
أخي ؛ راح يبحَثُ عنها مِن خَوفٍ عَليها ، فدارَ دَورَتَين و تاهَ حولَ
القَمرْ !
تَسألُني عَن أميْ ..؟ لَونُ شعرِهَا كَستنائيٌ بِه خُصَلتين شَقراوين ،
و شَعرَةٌ بيضاء واحِدة.. !

مَهلاً .. أنا لَم أُوْلَد ، آسِفْ لكَ .. هَذا خَبري السَعيدْ ! أنا مِنْ مَاءِ
الوَرد انبَثَقتُ .. صَحيفَةُ حياتيْ خاليةٌ من التَعقيدْ ، مَحضُ
بَاب خَشبيٍّ و سَقفٍ مَائلْ ، حَصيرَةٌ و شَمعة ، طِفلين أوَّدُ أن أكونَ
والدِهُمَا ذات غَمرةٍ .. و من سيرَتيْ ؛ تَنهَضُ شَجرة !
لَن تَفهَمَني مَهما أَسْهَبتُ ، فاخْتَصِر أمريْ أَمامَكَ بِابتسامَة .

صَوِّر قَلبي ؟ هل أَفتحُ أضلاعي أكثَر ، كَي تَعُدَّ الخَيباتِ و تُحصيهَا ! ، أَترى الطَعنَةَ الأكبَر هُنا في الخَاصرة ؟

انتَبه ! لَستُ كَواليسَ لِصَحوكَ ، أنا الوَاقِعُ الشَامِخُ في عَينيكَ أبداً .. فَالتقِط مَشهَدي قَبل أن تَنتهِيْ .. من سَردِ قِصَّتِي عبرَ الأَثيرْ.

لا تَدَع نبضَكَ يَنْطَفِئْ ، لا تُغلق عَدسَتكَ القَانصَة ، أُنظُر إليَّ جَيداً ، أَنَا لَنْ أَحيدْ .. صَورني و أُكتُب غَصتِي ضِمنَ اطارك .. كَي أَخرُجَ من ظَلامِ الشَريطِ الأَسوَدِ ، و أهمِسَ في ضَميرِكَ .. يا مُصَّورِ هيَّا وَثّق ..! سَوفَ أُجيدُ دَورِ المُحاصَرِ بِبراعَة ..

سَأوزِّعُ الأَحمرَ فَائِضاً عن حَاجَتِيْ، فانْتَبِه لِجُرحِيَ المُضيءْ ، إياكَ أن يَحترِقْ ، فَتَحتَرِقْ .. أثناءَ التَحميضْ !

مُنهَكٌ قَلبي ، فاقَ وَصفُ الحَنينْ .. لمْ أَسقُط أَبَدَاً ، لطَالما كُنتُ المُكابِرَ ، أُنْكِرُ جُرحِي ... حَتَى يَلتئِمْ !

فوضَايَ تَنهضُ قَبلِيْ كُلَّ فَجرٍ ، تَبحَثُ معي في البِلادِ عَن دَارِيْ ، و لا تَسْتَقيمُ الأَبوابُ أَمَامِيْ ، أَمَا النَوافِذ .. فلا جُدران تَحْمِلُها و لا فُضولَ يُشيرِ إليهَا .

اعتذاري المُسبقُ يا عَزيزَتي عن تَأخُري في الحَنينِ لَنْ يُفيدْ ، أَنْصَافُ الحَياةِ في عَينيكِ تَكفيني لأَقبَلَ الخَوضَ في حَربٍ ، و أنالَ النِصفَ المَخذول من أَمرِكِ .. لأُعيدَهُ إليكِ مُثخَنَاً بِالمَوتِ .. مُغلَفَاً قَلبي كَالهَدايا ، مُكافَأةً لِصُمودِك!

تعالي لِنَسقُطَ عَالِيَاً ، دُفعَةً وَاحِدَةً .. نَستعيدُ شَغفَ السَلامِ و نَسمُو !

مُجَرَدٌ من أَسلحَتي و مُصادَرَةٌ من جُيوبِيْ الوَثائقُ و من أَدْرَاجِي الدَفَاتِرُ ، باغَتَنا الوُجوم بوَجهٍ أَكبَرَ من أَن أُدهشَ من مَلامحِه .. فاقبَليني تَوبَةً ، و اغْفِري لي بَراءَةَ يديَّ من ذَنبِ الهُجومْ .. أنا يا عَزيزَتي لَستُ أملكُ إلا هَذا الوِشاحِ المُطَّرَزَ بيديكِ ، فَكيفَ أقِفُ أَمَام اقْتِحَام الجُنونْ ..؟

تأخرتُ جداً عَليكِ ، أعلمُ .. أَفنَيتُ عُمري أَجيءُ ، أَتَجَسَدُ إنسيَاً في مَرايا إشتياقَكِ ، أَتجَدَدُ في القَصائدِ ، و أَخرجُ مع النَاجِينَ من خَبرِ المُعتَقَلْ ..

مُنهَكٌ قَلبي ، فاقَ وَصفَ الحَنينْ .. لمْ أَسقُط أَبَداً ، لَطَالمَا كُنتُ المُكابِرُ ، أُنكِرُ جُرحِي ... حتى يَلتئِمْ !

اتهمتَني في الجُرحِ الذي في يَديْ ! مَاذا أَقُولُ لَكَ .. انا من سِكِّينِكَ بَريءْ ؟

أنا ما تَسَلقتُ جِدارَ المَوتِ ، كيفَ و لَستُ أستطيعْ !

هل رأيتَ غابَةً مرَّت من هُنا ، مَشَتْ على رؤوسِ أصابِعِها الأشجارُ .. كَي تستريحْ؟

إذَن كيفَ أمشِي للقَنابِلِ و لَيسَ لديَّ خُطوة ؟ و بوصَلَتِي نحوَ السَماءِ تَحيدْ!

استقَّرَ النزفُ ها هُنا بَارِدٌ كَالجَليدْ ، مَقَامُ قَلبِي اغتِرَابٌ ، و اغترابِيْ بِلادْ .

و لَستُ أُجَابِهُ سِربَ الحمامْ ؛ وحدَهُ سَقطَ من شائِكِ الفِكرَة .

اسأل مَلائكَةَ الحَكايات ، وقَد شَهِدَت على التاريخ ؟
سَتقول لَكَ : رصاصَتُكَ اخترقَتني منذُ مئَة عامْ !
إن كان قَدري أن أَميلَ نَحوَ الشُحوبْ ، فما رُؤاكَ ؟
هل سَتجلبُ باقَةً من قُرنفل ، و تُزخرِفُ قَميصِي و تَصرُخْ !؟
هَل تَقْبَلُ بَعضِي ؟ لو وَهبتُكَ كُليْ ..
ما أنتَ صَانِعٌ بعُمرِيْ ؟ هَاكَ عَناوينُ صَحوِي .. أَقربُ ما يكُونُ إلى البَقَاءْ !
أُضيءُ وَجْهِي أَمَامَكَ ، فَيكبرُ ظِليْ خَلفِيْ ، و أَبدو في رُؤاكَ المُقيمَ .. الذي لَن يُفلتَ من يَديه قَميص ضَميرك !
حَاضِرٌ سَأبقَى في صَفحَتِكَ ، بَصمَةٌ و دَليلْ .

عَلى هَيئَة مَجرَّة ، أتَى الحُزنُ لِيُقيمَ بُنيانَهُ في وَطنِيْ و يَنتزِعَ مني حَقَّ الأخضَر لَوناً منَ الشَجرْ !
اخترقَ السَماءَ .. بَدَد الغُيومَ ، و أَشعلَ فَتيلَ الشَمسِ .. و صادَرَ البَسمَةَ عن وَجهِ القَمرْ .

انفَجرَتْ بِنا الدارُ .. و بِتنا رَمَاد النَارْ !

و منذُ ذاكَ الإحتراقِ و نحنُ نَشْتَعل .. صُدورنا باتَتْ حَطبْ .. سيرَتُنا غضَبْ ، و ظلُنَّا زَعترٌ بَري .

ضَلَّ الشهابُ الحُرّ مَنارَتي ، و أَخطَأَ عنوانَ طفْلَتي .. فَتَبعثرتُ قَبلَ أن أُصدرَ الإنذارْ ! قَبل أن أَصْرُخَ فيهَا .. أَنت في خَطرْ !!

تَسَاقَطت النُجومُ في عَجَلٍ ، اضرَمت المَوتَ في المَجالَ .. و أُجِجَّ اللجُوءَ فينا، و حُطَّمَت ظُلوعُنَا بأمرِ الشَررْ .

فلْتنهَضي يا طَفلتي ، و أَشبَاهَك الأَربَعين ..! فَلْتنفضي عَنك النُعمانَ الأَحمَرَ .. و لتَزرَعي سَنابِل ذَهبٍ قَبل أَوَانها ، حَلِّقي نَحوَ أَرقِ ما سَكنني من خَوفٍ عَليك .. و حَنيني إليك ، و وَزِعي الصَقيعَ من يَديك .. إنَهُ قَد دَاهَمَني التَعبْ !

انخَرطي في النَشيد ، ثَابري يا طفلتي ، ليَصلَ الصَوتُ مَسْمَعي .. اني أُطَالعُك منذُ تَوَارَيتُ فيك .. لا تَلْتفتي .. هُناكَ في الخَلف سيرَةٌ من الجَمر ، و مَطباتٌ و حُفَرْ !

لَستُ أُريدُك أَقربَ للتَلاشيْ كَشَمعَة تَذويْ أو فَراشَة تَحومُ قُربَ الشَرر ، إني أُصَلي لسلامك ، فلا تَحزَني يا صَغيرة ، لو بيَوم تَأَخرْتُ عَنك .. في طَريقي إليك.. ثِقي أني لَوْ تَأَخرتُ عُمراً ، فإنيْ وَصلتُ السَماءَ دونَ شَارات عُبُور ، لأتيك بالمَنّ و السَلوى ، و أَحْفَظُ من أجلِ نَومك جَديدَ القصَصْ .

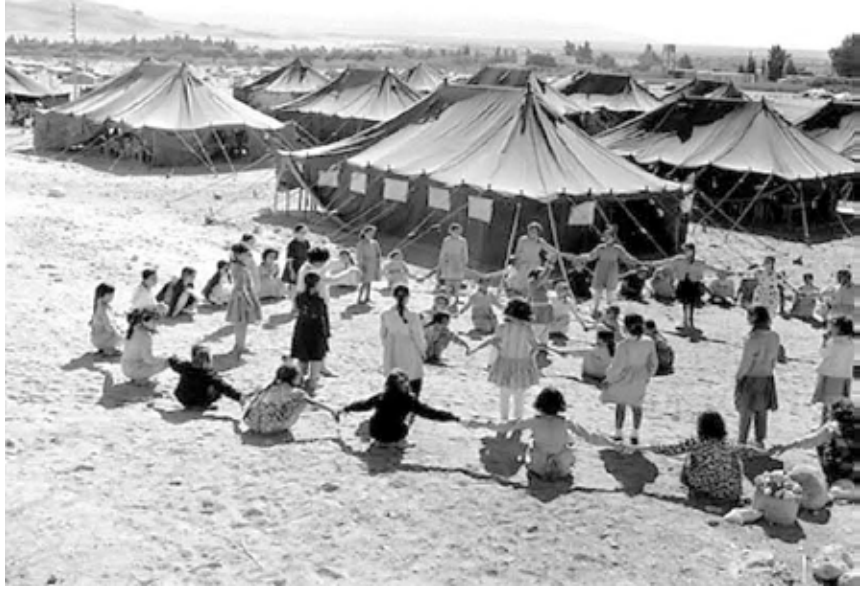

لَم أبنِ لقصَّتي بدايَةً ، فكيفَ تَسألوني نِهَايَةً لأَمريْ ؟

أَنَا احتمالاتُ الوُصول المُؤكَد ، و اعتقادُ الخُرافَة بأنَ استسلاميْ قَريبْ .. أَنَا ضحكَةٌ مَجَانيَّةٌ مُتْخَمَةٌ بملح الحَياَة ، و سُكَّرٌ فائضٌ عن الحاجَة .. قصَصٌ مَمْنُوعَةٌ من السَردْ ! أنا ابنَةُ هذه الحَواجز ، منذُ نهَضتُ وَجَدْتُهَا تَصُدُ الحُلمَ في وَجهيْ و تَدفَعُني خَارجَ الحُدود و الزَمنْ ! أنا مثل وردَة تَعبَت نظام فَوضَاكُمُ .. فَأثَرت المَسير للأمام ، نَحوَ الشَمس التي اختبأت خلفَ جِبالِ الجليلْ ...

فمَن أنا ؟ حُروفُ أُغنيتي تَفويضُ سَلامْ ، مَلامحي الشَفيفَةُ تَعبٌ ، و دَمِيْ أَحمرُ زَهرُ خُشخاشٍ .. أمَا عَيْنَايَ اللوزِيَةُ ؛ فَكستنائيَّةُ الرُؤى .. كَابوسِيْ ؛ ذِئْبُ حَربٍ و لَغمٌ في غابَة ، و قَاتليْ الفَوريُّ رَصاصٌ غَيرُ مَطاطِيْ ..! جُرحي خِيانَةٌ ، و دائِيْ الصَنمْ .. كَفنيْ ثَوبُ أُميْ ، و فِكرَتي عن الأَمانِ .. قَضيَّةٌ ضِمنيَّةٌ لا يَسعُها يَقينْ .

املأني حُباً ، لا فَراغْ !- يا قارئي- لَستُ فَزَاعَةً تَقفُ على أَعْتَابِ وَصفِكَ وَ قَصفِهِمْ .. أنَا مَلاكٌ ، فَلسَفتي دُموعٌ .. و أَثري بَراعِمُ خَضراءَ ، لَيسَ لي جَناحانِ كَي أَتفادَى طَلقاتِهِم السَبعة ، لكن لي هَالَةٌ بَيضاءُ و ابتسامَةٌ مَرتَبِكَةٌ ، و مَعي هَديلي .. و البُكاءْ!

رَبتْ على كَتفي بعدَ كُل فَاصلٍ اعلانيْ ، احتَويني ، فَإنَّ بي وَجَعاً يَنصَهِرُ على هَامشِ الوَسَائلِ الإعلاميَّة ، عَينايَّ مُشبَعتانِ بالرَمَادِ و رَأسي مُثقَلٌ بالحَطبْ .. امنَحني مَفَاتيحَ الدارِ كَي أعودَ إليها وَ أُوقِظْ مَن نَاموا تَحتَ الحَجرْ ، فَأنا لَمْ أوَدّعْهُم ، و لم أدَعَهُمْ .. ، حَسبي أنني خَرجتُ كَي أُحصي نُجومَ دَربِهِمْ ، أَتيتهُم بها .. نُجومِهِمُ و الحَلوى ، لمْ يَكُن الدَرب أليفَاً لَو يعلموا ، كان شَائكاً جِداً و قَاتِلْ .. إن لَمْ تستطع أن تَمنحنيْ مَفتاحيْ ! أو بابَك .. فلا تَبخل عليَّ .. بيَدكَ ؛ احملني أو اسنِد دِفاعِيْ ، أو احْمِل مَعِيْ .. سِلاحِيْ !

افتَح عُيُونَكَ يا صَغيريْ و احفَظ درسَك الأوَّلَ ، من كِتاب العُمر افتَح صَفحَة الجُرح .. الفَقرَةُ الأُولَى بعدَ القَصفْ !السَطر الثاني .. هذا الوَصفْ !!

هذا دَرسُكَ الأبديْ .. فاحفَظهُ ، عليكَ أن تدرس التاريخ .. تَفهَمهُ !

هذا جَوابُكَ و اتجاهُكِ يا صَغيرْ، غداً ستكبرُ و يَلزمُكَ فَهْمُ المَلامِحِ ، و إجادَةُ قِراءَةِ سِجلاتِ «الأونروا» .. حِفْظُ خَرائِطِ المِيلادِ وَ المِيعادْ !

افتَح عُيُونَكَ على الدَهشَةِ ، املأ ذَاكِرَتك بالورَدِ و بالنَارِ .. آيلٌ للنُهوضِ أنتَ كُلَّمَا سَقطتْ ، لا تتعثَرْ بسيرَةِ الصَّبارِ !

يا صَغيرْ ،، ذهولِيْ عليكَ كيفَ لِقلبِكَ أن يتَسارَع وَمْضُهُ .. أَنْ يَرتَجِفْ ، و هذا الدَمَار أقامَ فيهِ ظَلامُهُ .. و عَاثَ ضَجراً في البِلادْ !

تعبي فيكَ تَجَلَّى .. ثِقلاً أودَعتُهُ إيَّاكْ ، حَرِرني يا صَغيري مِن قَيدٍ وَ هُدنَة ، هذا الخَوفُ حَاصَر بَهْجَتِي فِيكْ ، و هَددَنيْ !

افتَح عَينيَكَ يَا صَغيريْ ، سَجِّلْ .. سَطِّرْ ، و اقضِ انفجارَكَ ، كيفَ للصفرِ أَنْ يَكون مَعْنَاً ، و أَنتَ لمْ تَتعلَّم العَدَّ بَعدْ !؟

وَضِّحْ لهُم كَيفَ يَغضَبُ الثُوارْ .. لا تَشهَقْ ! احفَظ عَن ظَهرِ غَيبٍ ، عَنَاوينَ الرَسائِلِ و مَواسِمَ الحَصادْ ..!

سَينفَعُكَ يَومَ يُؤذِن الإمَامْ .. و يُنادَى أَحبَّةُ العَذراءْ . إني كَتَبتُ وَصَايايَ إليكَ بالرَصَاصِيِّ لا بالرَصاصْ ، فلا تَدَع دُموعَكَ تَمسَح الإمضَاءْ .

فَلْتَغفُو في صَدريْ ، فقَد ضَاقَ المَهدْ ! و غِطاءُ دِفئِكَ قَد مُزِّق ، تُهمَتُهُ زُخرَفَةٌ بِلَونِ عَلمِ البِلادْ ..سَأُهَدْهِدُ خَوفَكَ بِترنيمَة ، تشَتتُ أصداءَ الغارَةِ ..و تُنادي حُلمكَ كَي تدخُلَهُ ، آمناً مطمئناً! يا صَغيري ، فلْتُغلِق عَينيكَ ، المَشهَدُ أَعْتَمُ مِن أَن تُبْصِرَهُ بَقلبِكَ .. و بَلاغي إليكَ خَبرٌ آجِلٌ ، لا يُوفِي أَحلامَكَ الصَغيراتْ.

نَمْ يا صَغيريْ قُربَ نَبضِيْ ، اقتبِس منهُ الدفءَ ، و النَشيدْ!
سَأُصلِيْ كَي تَنعَم بالسَلام ، و تُغادرَ حيزَ هذه الأَرض مَواويلُ القَصف .. من أَجلِ أن تَغدُو دَربُكَ بُستانَاً تَسكنهُ العَصافيرْ !
سَأُصَلِيْ .. ، يا صَغيري ؛ كَي تَنامْ ..

كيفَ أحملكُم جَميعَاً ، لِي قَلبٌ واحِدٌ .. وَ ضُلوعٌ هَشَّةٌ سيَجتُ فيهَا حُدودَ الوَطنْ !
باتساعِ السَماءِ حُدودِيْ ، و نَبضِيْ ثَقيلْ .. اني كَبِرْتُ فِيكُم ، حَدَّ شاخَ على أَعتابِ صَمتِيْ الزَمنْ ..تَعالوا إليَّ ، احتَموا فِي صَدرِيْ ، فَظَهرِيْ جِدَارٌ ، وأَنْفَاسِيْ دَفءٌ .. و حُبِيْ السَكنْ .
إن كُنتُ سَأَنجُو مِن خَوفِكُم ، سَامحونِيْ ! كيفَ أَحْملكم جَميعاً ..؟
لو أجيدُ البِناءَ ، كنتُ رَفعتُ البُيوتَ ، لو زَرعتُ ؛ لإختَرتُ أبهَى الوُرودِ ، لقَطفتُ لكُم مِن ثِمارِ الجَنَّةِ .. عَنَاقيدَ تُوتْ !

لكنني لا أجدُ في جُعبتي غيرَ الحكايات ، إني بَذلتُ لِحفظِكُم فيها ؛ الوَصَايا ، صَلَّيت كي لا تَموتْ. إن كنتُ سَأنجو من خَوفِكُم ، سَامحُونيْ !

كيفَ أَحملُكُم .. كُلَّكُم ؛ ليسَ بوسعِ يَديَّ أن تَصْعَد بِكُم للنَجمَة العَاليَة ، قَد أَطَالُ الغُيُومَ .. أيكفِي أَنْ أَغزِلَ منهَا لَكُم .. كُلِّكُم ، مَهداً يَليقُ بِكمْ .. لا كَفنْ !

× × ×

مَداراتي وَصلٌ لِرُؤىً مُتأخرَة ، و إحتمَالاتُ المَسيرِ شَغفٌ يَحيدُ عَن البُوصلَة ، فقَد طَرأ على المَشْهَد خَبرٌ عاجِلٌ ؛ دَائماً كُنتُ الأَسيرْ ! الفَضلُ لِمَرايا عَكسَت بُنِّيَ عَينيَّ في وَصَايَاهَا ، فَأدمَنتُ الأَرضُ اختطَافيْ من بَراءَتي ، و انتقَائيْ بِحُجَة إنتمَاء ، أخذَت تَطرَحُ عَليَّ الأَسئلةَ الصَعبَة ، و أذهَلها أن إجاباتي نَموذُجيَّةٌ سَهلةٌ ، أنَا مَا ضَيَّعتُ العَناوينَ ، وَحْدَهَا المَلاجِئُ تَعْرفُني ، و السَماءُ المُتْخَمَةُ بالرَمَاد .. تَحفَظ مَلامحي عن ظَهر غَيبْ !

أَمشي نَحوَ الفَجر ، مُقيَّدَة بِالخُيوط تُقَسِّمُني دون إنْصَاف و تَثْأَر لِلَونها المُنْهَزم بِدَميْ ، مَا عَسَاي أَفعَل ؛ أُنادي بالأسماءِ كُلِّهَا ، أو أُحصيهم في ذاكرَتي و أَخدِش جُذوعَ الشَجر كَي تُحصيَ قِصَصَهُم عن النِسيانْ ؟

انهارَت أَمامَ عَينيَّ دُموعُ حجارَةِ البَيتِ ، و مَا بَكيتُ ! فَلست أَملكُ رُخصَةَ البُكاءِ في زَمنٍ راهَنَ على صُمودِيْ فيهِ ، و كنتُ فيهِ تُهمَةً .. ما دَلَّ عَلْيهَا مَصدَرٌ و لا أثَرْ ..

غَلَبتني المَواجِعُ ، و فَاضَ الحَنينُ عَن قُدرَتي على حِمْلِ الصُوَر ، فَرُحتُ أَتلو آياتِ السُرورِ عَلى قَلبي ، عَلَّنيْ أَعبُرُ مَصائِدَهُم لِمَصيرٍ يَليقُ بي ، أُصَلي لأجلِ بُلوغِ صِراطِ العَاشِقينْ .. وَ جَنَّةِ الحِمضياتِ المَزروعَةِ بالثَمرْ .

قَبَسٌ من الحُزنِ أُغنيَتيْ ، و اللحنُ صَدى ! بَددَ البُكاءُ ابتِدَاءَ النَشيدِ في دَميْ ، وَ حَرَّضَ اللونَ على النَزيفْ ؟ ما قيمَةُ الكَلماتِ إن سَكنت مُنحنَى الصَمتِ ؟ ما هُويَّةُ اللغةِ لو استعصَى عَليَّ النِداءُ ؟ انكسارُ العتمِ حرَّضَ انتهائي على الضُوءْ ، تَوَضأتُ من دموعي و نَهضَتْ كَي أُسيِّجَ مَلحَمتيْ بالغَارِ .. ، كَي أَمشي نحوَ مَواعيدِ الصَلاةِ .. لمْ أَعتنِق حَرباً و لا أمنتُ يَوماً بالدَمَارِ ، كُنتُ أجيدُ زرعَ السِياجِ بالياسمينِ و غزلَ الحكاياتِ بالأخضَرِ ، بتُ الياسَمينةَ الخَجلَى المركُونَةَ تحتَ الرُكامْ .. و بطلةَ الحِكايةِ المُعترفِ بها دُولياً ، كنتُ جِسرَ العُبورِ للنومِ الأمينِ و أُغنياتِ الحَمامْ .. و الصَدرَ الحَنونَ لليالِيْ الظَلامْ .. قَبلَ أن أكونَ مَحضَ حاجِزٍ أو تِذكارٍ يحاصِرُ الغافينَ في المَنفَى !

مُشتَعِلَةٌ بالأسرار، تَصطَكُّ أسناني غَضباً ، حَيرى عُيونيْ سَاهِمَةٌ في سَماءِ اللّه .. فقَد اصفَرت سِيرَتي المكتوبَةُ بِمَاءِ الورد ! و لم يعُد هُناك مَن يَقرؤني في لَحظاتي الأَخيرَة .. دُستور العَودَة يُلَقنُني إيَّاهُ .. حَياةً ! مَن سَيبني إلى المَجد مَنارَةَ حَفيديْ ..؟ و يَعتلي مِنبرَ جده «صَلاح الدين» في الأقصَى ..؟ ، مَن سَيصعَدُ باسمِيْ سِلمَ القَرار ..؟

× × ×

عَهدتُك لِملاكٍ يَسمو بِكِ نَحو غَيمٍ خَفيفْ،
سَيلعَبُ مَعكِ و تَبني مَعَهُ قِلاعاً في الأَثيرْ.
فَمَهدُ لُجوءِ مَنامِكَ طَالَهُ عَجزٌ .. و صَدريْ يا بَريئَةَ العَينينِ .. احتَرقْ !

صَغيرَتي ،
هات يديك لتدخُلي الجنَّةَ أمنَةً من زِئبَقِ الأَرض ، مِن كَوابيسَ رَوَاهَا الغُولُ وَ وَزَّعهَا عليكُم بالمَجانْ ..
سَقطَت إشاراتُ العُبورِ و صَادَرتْ جِهَتيْ ، سَأَلقاكِ في خَيالِيْ كُلَّما أَغْلَقتُ عَينيَّ .. إني أُعجّلُ في الدُعاءِ كَي آخذَكِ مَعي على مَحملِ الأُمنيَّة .

صَغيرَتيْ ،،

وَعدي لَك ، أن تَنعمي بسلم مُؤَبد ، هُناك حيث المَلاكُ سَيصطَحبُك ، لملاعبَ مَزروعَةً ورداً .. سَوف لَن يَجْرَحَ وَجنَتيك بُكاء ، لا ألغامَ تَحصُدُك ، ولا ألَمْ.

صَغيرَتيْ ..

فَلْتسَلميْ و تُسَّلميْ حصارَك ، لِمَلاك سَيزفُك أميرَةً .. سَيضُمُك في مَشهَد قُربَ الشَفقْ ، و يَحملُ رُؤاك عَنك ، و يبعثُهَا إلينا مَوسِم المَطرْ !

صَغيرَتيْ ،

استسلميْ .. لا وقت إضافيٌ للخَوف لا مجالَ لإعرابَه الآن ، هُنا الأغانيْ قُيِّدَت و اللحنُ بَليدْ ، هُناكَ في رُباك عصافيرُ بكُلِّ الألوان التي عَلْمتُك ، و أُغنيةٌ بِصَوتيْ .. عن سمْعك لا تَحيدُ .

استسلميْ ،

لا يُمكنُني إيقافُ اللونِ النافرِ من جَبهتك ، اكتملَ القَمَرُ في وَجهك و سَلَّمنا زِمامَ الليل .. أعصابي مَشلولَةٌ و العَجزُ مصيرٌ .. لا أستَطيعُ رَفعَك إلي .. ، و كمْ أخشَى أن تَبْكي عليْ !

صَغيرَتيْ ،

سَلميْ يَديك للضُوء ، سَينبُتُ لَك جَناحين من ريش .. أبيَضَ مَحفُوف ببَعض الرَمَاديْ ، سَتُطفأُ هذه النَارُ التي رُشَّت فَوقَ جُروحَك ، سَتَزُفك القنَاديلُ لِفَرحَةٍ قادِمَة .

يا أَميرَة !

هَكذا يُناديك المَلاكُ ، أَتسمعينَهُ ! فلْتَسقُطي بينَ يديه .. لا بأسَ إن بَكيت ، لكن لا تَزيدي عن دَمعتينْ ! لِتَأمنيْ من سيرَةِ الهَلاكْ .. سَلِّميه نَبْضَك ، شَهقَتَك الثَقيلة ، و استسلميْ .

«يا أميرة» ،

يُناديك ليتَّوجَ رأسَك بنيزَك من ذَهبْ ، لا تُريدينَهُ يا صَغيرَتيْ .. !؟ يَعزُّ عليَّ بأنك لن تَبلغي الرَبيعْ ، لأصنَعَ لك تَاجاً من الزَهر ! وسَامُك سُنبلةٌ ، أَمنحُك إيَاهُ شَهَادَةَ تَقديرٍ و رِفعَةً مَدْمُوغَةً بالسحرِ على دَفاترك.. مع أنك تَغيبت عن الدَرس الأول في رَوضَتك ، إلا أنَّك اجتَزت بِبَراعَتك ؛ كُلَّ الأسئلَة .. عَلامتُك الجنَّة ، يا صَغيرَتيْ ..

منذُ تَلوتِ على عُمرِي «الفاتِحَة» ، و أَنا أُصَلِي كَي تَكبُرِيْ نَصراً و حُريَّة ..و تَذكرِي .. لَن أنساكِ ، أَنتِ حاضِرَةٌ هُنا الأنَ دَوماً .. قُربَ رُوحِيْ .

وَقفتُ أُحاكِيْ ذُهولَ التَّبنِيْ ! أَخذتُ على عَاتقِيْ الرِوايَة .. رافَقتْني القَضيَّةُ تَخطُ إمضَاءَهَا في بَاطِن كفِيْ ، كلَّفنِي الحُبُ بأن أَعفوَ عَن يأسِيْ ، و أُضيءَ شَرارْ .

لأَمضِيَ و إن سَيَّجتُ خَطويْ بِمفتَرَقِ غُصنٍ وَ نَار ، سَألتُ الحِصارَ، كيفَ سَأجتازُ نبضَكَ بِسلْم حَواسّيْ ، في قَلبِيْ القَرارْ ؟

أَجَابْ ؛ لا تَخافِيْ .. غَضَبِيْ لَن يَطالَكِ إلا في حالِ كُنتِ الغَزالةَ الشَريدَةَ التي لَن تنسَجِم و أَنْيَابِيْ ، في حالِ كُنتِ الفَرارْ !

دَعْوَايَ فرَحٌ و حُلميْ ازدهار ، و فَوضاكَ عَجزٌ و فَحواكَ فقَد ، هَيأتُ لِحتفكَ أزهاريْ و عَقدتُ العَزمْ ! ، سلَّمتُكَ غفوةَ إيقاعيْ و رَفعتُ جَناحَيَّ لأعلاهَا أشعارْ ..

يا طِفلَةً تَرْقُبُ المُعجزَاتِ وَ تَصنَعُهَا من وَردٍ و أَقاحٍ ، تَداعَت على شَائِكِ الوَصفِ احتمالاتُك ، لا تُناديْ ، فُسحَتُنا ما عَادَت مَوزونَةٌ بالحِوارْ ؟

كواليسُكَ تَرتيلَةُ حُزنٍ ، و إني أُريدُ الرُجوعَ ، لِضحكَةِ أُمي الجميلة و خُبزِ أبيْ المَعجونِ بالزَبيبِ .. و قِصَصِ جَديْ عن نورَسٍ صَاخِبٍ بالأبيضِ ! مُغامراتُ ابنِ جَيرانِنَا ؛ في الانتصارْ .. ، و رَفيقَةُ الدَربِ التي سَرقَها الذئبُ ، فَكَانَت أَولَّ لَيلَى تُحكَى في المَدارْ .

احتضارُكِ باتَ سُقوطاً أوضَح من شَمسِ النَهارِ ، أَفْجَعني مَشهَدُ الوَعدِ في عَينيكِ .. سأكتُبكِ إنتهاءً و أَكتُمُ أغنيَتَكِ ، أنفاسَكِ .. أَدْمَغُهَا صَفعَةً لكِ باسم مَن أخذوا البِلادَ و خَلفوهَا .. الدمارْ !

ازرَعني نَخيلاً إذَنْ ، سَأخرجُ من جُذورِ التُربَةِ السَمراءِ إلى قِمَّةٍ تَتَنامَى تُجاه معراجٍ للسَماءْ ، و اهبطُ على كَتِفَيكَ و أَفرِدُ أَجنِحَتيْ فَوقَ خُوذَتِكَ .. هذا عَهديْ ، و ذَاكَ المَسارْ .

و تَنازَعت في خَطوي الجِهَاتْ ، ما بَينَ شَرقٍ مُسْتَعْمَرٍ بالبَرقِ و جَنوبٍ مُتكدسٍ بالرَمَادْ .. لَستُ أدري أينَ وِجهَتيْ ، حَسبيْ الخُطوطُ في جَبهَةِ أُميْ تَحكيْ قِصَّةَ الجَلادْ !

أَنَا ما وَقفتُ يَوماً على مُفترَقْ ، كَانَت الدُروب تَتَقاطَعُ عِندَ عَودَتيْ كُلمَّا نادَيتْ يا أبيْ !، و لَستُ التي خَرجتُ دونَ إذنِ الشَمسِ من البيتْ !

و تكاثَفَ الوهمُ أمامِيْ ، تَجسَّدَ وَحشاً بِأَنيابٍ و مَخالِبْ ، و قَطفَ ابتسامَتي عُنوةً و أردانِيْ تَشرُّدَ ، أَهداني الذُبولَ و قالْ : أنتِ احتضارٌ فَكونِيْ مَجازاً ، و ابْكِ !

تَمادَى الغُبارُ و صَعَّدَ تَيهي .. قيَّدَ الأُفقَ بالرمادِ و عجَّلَ مَوتيْ ، أمَّا الطينُ فَتهاتفَ كَي يُبَلِلَ بالبُنّيّ مَريولِيْ ، و اسميْ ..
على هَامشِ الفَوضَى كَتبتُ سيرَتِيْ قَمراً ، صُورَةً مَنْسيةً من التَوثيقِ فائضَةً عن التَاريخ .. أرفَقتُها أُغنيَتِيْ ، و مَا توَّقفتُ عن البُكَاءْ .. الذي لَم يَغْسِل أَوْجَاعِيْ ..

انا ابنَةُ هذه الجُموعِ التي كُلُ صَبحٍ يَقتضِيْ فيها الوُصُولَ إلى البَسَاتينِ ترَكَ ندبَةً في الصَميم و طفلَينِ لَم يَلقيا اسماً بعدُ ..!، وَ بَقيَّةُ الأَنينِ المَغروسِ عَجزهُ في مَلامحِكُم .. أنا ، عَجزُ السَبيلِ إلى السُكونِ على شَائكِ الأَسْلاكِ .. عُصفورَةٌ مَجروحَةٌ في الجَناحْ !
تَكاثَرَ الكَابوسُ في أُفقيْ ، و تَكالَبَ الذئبُ عَليَّ .. نَهَشَ صَوتِيْ و الهَديل ، تَغَذى عَلى طُفُولَتِيْ وَ لَكنَهُ أَبَداً لَمْ يَشبَع !

دَارَت بِيْ الأرجاءُ و استقَر الدفقُ ناحيَةَ الحَنينْ ، و بِتُ مَرثيَّةً

مَكتوبَةً بالدَّم ، سَمُوا باسميْ الشَوارِعَ القَديمَة ، و نَسونيْ عندَ كُلِّ إشارَةٍ خَضراءَ سَارَت بِهم نَحوَ عُمرٍ سَريعٍ و مُنعَطَفٍ !

مَا ذَنبُ خُطوتِيْ ، لِتَغتالَني الحُفَرُ ؟ ما قِيمَةُ الأثَر ، إن كانَ لا يُزهِرُ في غَضبِكم ثأرْ ..! يا رِحلَتي النَازِفَةَ نَحوَ حَسْرَتِكُم ، أنَا لَن أَنْكَسِر مَهْمَا فَخختُم قُيودِيْ ، لَسْتُ نِهَائِياً ، أتجَددُ باسمِ الصُمُودِ إلى مَا لانِهَايَة ..

أَبكِيْ عَلى حَاجِزٍ من صَوتْ !

أَزيدُ في صَمتِيْ و انفَجِرُ ، أَينَ أَنَا .. هَذا الرُكَامُ تَصَاعَدَ في المَدَى ،

أَرْدَانِيْ في مَجالٍ أَزرقَ بِلا هُدى !

مَن أنا ؟

طُفولَةٌ تاهَت عَن عُمرِها أَمْ رَقمٌ صَعبْ ! لا تَرْمقِني نَظرةَ شَفقَةٍ

، أَجبِنيْ بالسَهلِ ؟

بَرَاءَتِيْ مُطلَقةٌ ، فَكَيفَ صَادَرتُم أَحلامِيْ ..اسمِيْ السَلامْ ، و رَسمِيْ

حَمامْ .. أكبرُ هَمِي ، دونَ خَوفٍ أَنْ أَنَامْ ..

لِمَاذا أَخْذُتُم سَمائِيْ ، أليسَت للّٰه هذه السَماءُ ! لَنَا ؟

سَرقتمونِيْ من جَنَّتِيْ ، و أَشرتُم إليَّ أن نَامِيْ بِلا سَقفٍ .. في

العَراءِ هُناك !

هَذه تُربَةٌ حَمراءُ مَغليَّةُ بالدَّم ، عَنَاصِرُها نحنُ و بَقايا الأَنجم ..

كيفَ أزرَعُها وَحدِيْ ، ضَعيفةٌ قبضَتِيْ ! رغمَ وَفرِ البُذورِ وابتِسامِ

الغُيومِ ..

عن بُذورِ الليمونِ لا تَسألونِيْ ، هِي تُثمِرُ كلَّمَا سَالَت دَمْعَةٌ من

مُقْلَتِيَّ ! أنا استمراريَةُ الأخضَرِ ، عَناقيدْ .

و إنعتاقُ اللونِ من رَمادِكُمْ .. نَقاءُ الياسمينِ مُقتبسٌ من ابتسامَتِيْ

، و الوردُ يَنمو من بينِ أَصابِعِيْ .. أُنْظُروه ..

سأبكِيْ على حَاجِزِ الصَوتِ ، و أَطلِقُ صَرختِي فِيكُم .. كَي أَصُمَّ

المَدافِعَ ، و أسيرُ أُقودُ المَواكِبَ ! و أقطِفَ القَمرْ ..!

أنا مَلاكٌ هَابِطٌ من وَحيِ مُعجَزَةٍ ، وكِتَابٌ مَفتوحٌ على الدَهشَةِ ..
عَنَاويني خَيمَةٌ لا تُقَامُ على وَتَدْ ! مَلاعِبِيْ على حَافَةِ الوُجودِ
مُسَّورَةٌ صَبارْ ، سُطوري آيَةٌ تُضَمِدُ تَعبَ النَبضِ في صَدريْ .. و
عِبرَتِيْ دَرسٌ أَبَدِيٌ في الصُمودْ .

مُقدِمَتِيْ تُقَارِعُ مُنذُ البَدءِ عَنَاوِينِي ، و الهَامشُ مَفتوحٌ على رُقعَةِ
الإختصَارِ و المَشهدِ .. حِصَارْ !
سُقوطُ الرُؤى أَشبَهُ بِشُهُبٍ ضَلَّت مَدَارها عَن كَوكَبتِيْ و ضَاعَتْ ، و
الشَمسُ لا تَذكُرنِيْ ، فقَد طالَني الجَليدُ ، جِسراً بَنيتُ كَي أَصعَدَ
عَلى إنتِظَارِيْ ، أَولَويةُ الإنتهاءِ مَسارِي .. و خَارِطَتِيْ الألمْ ..

ما مِن نَدمٍ سَكن شُرفاتِيْ ، مَحضُ يَقظَةٍ خَفيفَةٍ أَدت أَحْلامَاً
مُؤقَتَةً على قَارِعةِ المَتَاه !
فَخٌ مُرتَبِطٌ باللجُوءِ الأَخيرِ ، و القَضِيَّةُ حَجَرٌ فَقأَ عينَ التِنينِ ، و
لَم يَجرَحْ جَبهَتَه !

القُرمزيُّ لَونُ عَينيَّ بعدَ انهمارِ الليلِ فيهمَا ، حينَمَا احتدَمَ البَرقُ و توَّجنِيْ بُكاءْ ، وُعُودِيْ أَمَلٌ ، و فَاكِهَتِيْ الرَمَادْ !

لا شَيءَ يَسُدُّ جُوعَ السلْمِ في قَلبِيْ ، عَجزَ الفراشُ عن انتقاءِ الرَحيقِ ، فاضَت يَدايَ من نثارِ النُجومِ ، وجُومِيْ مُرتبِطٌ بالأمَدْ ! تَركتُ قُربَ بُحيرَةِ الحُزنِ سيرَتِيْ ، هُنَاك حَيثُ الفَزاعَةُ تُطَيِّرُ الأُغْنِيَاتِ قَبلَ أن تَقطف اللحنَ من فَمِيْ !

سَوَّغتُ للجَداوِلِ تأخُرَهَا عَن انتشَالِ بَقاياي ، و جَمَعتُ حُجراتِ قَلبِيْ بيديَّ ، لستُ أجيدُ الخِياطَة لكنَّ تَرقيعَ السلالِ همَّتِيْ كانَ .. قَبل أن يَكونَ تُهمَتِيْ !

مَخدوشٌ نَاحيَةَ الخَاصِرَةِ ، لا قَبرَ يَتسعُ لِخريطَتِيْ ، و لا هيكلَ وَاحدٌ يَكفِيْ لِيَحملنِيْ!

أنا أكبَرُ من مَوتٍ يُوَزِعُ منجَلَهُ فيكُمْ ، و أَصغَرُ من رُوحٍ مُنتَزعَةٌ بمقصَلةٍ ، صَغيرٌ رُغمَ الضلعِ الصَلبِ ، هَشَةٌ مَشاعِرِيْ ، كَم غَرقتُ ولَم أطفُ على سَطحِ الوُضوحِ حينَ أحببتُ .

أتنَفَسُ رَغبَتِي في السلمِ ، شَهيقِي دُعَاءٌ و زَفيرِيْ .. تَعَبْ !

لا أَستطيعُ البَوح ، نَسيتُ الكلامْ !

كَلمةٌ واحدةٌ فقَط ، لو أنطقُهَا .. أَطيرْ، أَحببنِيْ بِقَدرِ ما فِيكَ مِن حَياة ، فَمَوتِيْ قَريبٌ و نَجاتِيْ احتمالْ !

أَحببنِيْ دَائماً ، و لا تَنسَى وَميضَ أُغنيَّتِي التي لم تكتملْ ، زَنبقَةً امنحَنِيْ ، سَيِّج أَسواري بالورد ، فقد اشتَّدَ بِي الدُوارْ ، ظَلِّلْ جَبهَتِيْ أخافُ عليَّ من شَمسٍ غَاضِبَةٍ ، قَد تُسَمِّر وَجنتِيْ !

امنَحنِيْ مَحبَتَكَ قَصائد ، أُكتبِني بِكُلِّ اللغاتِ .. حكاياتِ بطولَةٍ دَخلتُها راويَةً وبَطلَةً !

جَمِّلنِيْ في تَفاصيلِ الوَصفِ .. فإنِيْ قَد اقتَربتُ من حادثِ قَصفٍ مَدروسِ الأبعادِ.. باتَ يَحرقُني السُؤالُ ، و جَوابِي لا يُعجِبُ سِيادَةَ القَاضِيْ!

ماذا عَسَايَ أقولُ ، لَستُ أُحوِّرُ حَقائقَ ما رأيتُ .. و ما يَجِبُ أن يُقالْ ، هُنا مفاتيحي بعدَ أن ابتَلَعتُهَا ، وَ تلكَ غُرفُ التَحقيقِ خلفَ الميدانِ ، لَمْ أتعَب من جَلدِ المُحقِقِ ليْ ، كان أطلَقَني بعدَما تَعِبْ ..! ، كُلُّ هذهِ التِلالِ على امتدادِ البَصرِ لِي ، منذُ الخَليقَةِ أحرُسُهَا و أَحرُثُهَا..

دَعْ هَذا الثقبَ في صَدريْ مَفْتُوحاً على إتِسَاعِ الحَقيقةِ ، منهُ يتسَّربُ لروحيْ ضُوءُ القَمرِ ، من خلالهِ أَرَى الطَريقَ إلى الخَلاصِ قَبلَ أن يَشْتَّدَ مَطرُ النارِ ، أَعطني رُزمَةَ الرَسَائلِ التي كَتبتها ذاتَ حَنينٍ و لمْ تَصلْ ، فَأَنَا أُريدُ لو أَضمُهَا ، قَد تَتضحُ الجاذبيَّةُ لي ضُوءاً ، و يَطيبُ ليْ قَلبِيْ الفَارِغُ النَبضِ ، أَحملُهُ بِيَديَّ و نَحوَ صُندوقِ الرسائلِ ؛ أنسَحبْ .

إني اكتَشفتُ من مَكَاني أنّكَ لَنْ تستقيلَ عَن حُبيْ ، أراكَ تَصحو كَيْ تُحَيِي المَوتَ مُتَلَثِماً بِعلمِ البِلادِ ؛ فيهابَكْ!

أَصبَحتَ تُجيدُ رَسمَ خُطَةٍ تَليقُ بالهُجومِ .. ذَلَّلتَ السياسَةَ بالرَفْضِ ، اعتناقُ الدُبلوماسيَةَ ليسَ غايتَكَ ، مَحضُ عَزاءٍ أَقامَت مَراسمُهُ الطُقوسُ .. هَذا اعتبارُكْ .

تذَكر يا عزيزيْ و أنتَ تُشعِل فَتيلَ المُعجزةِ ، إنَّ عَقيدَتي حُبٌّ خالصٌ للأرضِ .. فاكتفِ باستعادَتها عن العَالَمينْ .. ؛ فلَسطينْ .

لَيسَ ما احملهُ في يَدي وَثيقَةٌ تَحملُ حروفَ اسمي و رقماً مَجهولَ البُرهانِ لا تطالُهُ مُعادَلةٌ أو سَببْ ، هذا قَلبيْ أحملهُ ؛ أقيِّدُ فيهِ عدَّادَ البُكاءِ و كَم مرَّةً احتَجتُ لنبضَةٍ تُأكدُ أنني لا أزالُ على قَيدِ الصُمُودْ ، وفي السَطرِ الأخيرِ تُقرأ بوضوحٍ مَواعيدُ نسيانيْ ، .. أنا مُدانَةٌ بلونِ أشجاري الشاحبَةِ يومَ قطَّعوا أغصانَها بحُجَّةِ صُنعِ بَيتٍ لي جُدرانُهُ من خَشبْ ؛ نَهضتُ و لَم أجد سَقفاً يَقينيْ غارَةَ الكلامِ و كانَ غَضبيْ الزئبَقيُّ طَفلاً لا يَهابُ المخاطِرَ ، فَأحكمَت القبضَةَ على الوَثائقِ و العُهودِ ، حوَّلتها حَطبْ ..

هل ترَى حدوداً موسومَةً بالزَهرِ خَلفَ البطاقَةِ التي علَّقتُهَا في عُنقيْ مفتاحَ دخولٍ في مطبَخِكَ لتقدِّمَ لي طَبقاً ليسَ مُفضَّلْ ؛ و إني الصائمُ أبدَ الدَهرِ ... هذا نوّارُ ليمونٍ سَيتقتبِسُ من بَراءَتيْ مَشهداً كَي يَصنعَ من مَواثيقِ ادعائكَ رَفْضَاً يَليقُ بيْ ، إنيْ أرَى في عينيكَ ذهولاً بَنَى لرفعتهِ سقوطاً أجلاً .. مهِّد لسؤالي لَك جواباً واحداً ، و أجبنِيْ .. أينَ المدينَةُ و البَشَرْ ؟

هذا حصاري .. أم انتصارُكَ ؟

إن كانَ حصاريْ ، فدَعني أخبُركَ أنني أكبَرُ من أن تحاصرَ قِصَّتيْ أو توجزَ الحكايَةَ بنهايَةٍ من صَنعِ يديكَ .. ليسَ هُناكَ مُختصَرْ !

إن كانَ إنْتصَارُكَ ؟ فَهنيئاً لكَ سَتموتُ القَصَائدُ في مَنَاقيرِ العَصافيرُ ، وَ يَجفُّ الزهرُ على سِيقَانه .. لمْ يَكُونَ لَه عِطرٌ .. وحدَكَ المُلامُ بالشَّرِ و الشَررْ ..

مهلاً .. دَعني أُخبِرْكَ الحَقيقَةَ قَبلَ أن تُكملَ حَياتَكَ الطاعِنَةَ بالموت ؛

هذا انْتصاريْ .. وَ حصارُكَ ..

لُغَتِيْ عَينينِ تَألفَتَا الرَماد ، فكيفَ أَراكْ ..؟

اتخَذتُ الصَمتَ تَعبيراً مَجَازِيَاً عن الوَجعِ الذي حاصَرَنِيَّ الكلامَ..

هَل يَكفِي مني إيماءَةٌ أُدلي بها إشارَةً .. عَن جِهةِ الوُعودِ و الوُرود؟

هذهِ الوَثيقَةُ ما أصنَعُ بِها ؟ سَتعيدُنِيْ عَبرَ جُنحانِ الحَمامِ لدارِي ..؟

هَل مَكتُوبٌ عَليها اسمِيَ الوَردِيَ بِغَيرِ لَوْنِ الدَّم ، اسمَ والدِيَّ و عِنْوانُ الضُوءِ ..

هَل تَحْمِلُ صُورَةً لِيْ و أنا أتوكأُ مَشهَدِي ذَاتَ عِيدٍ و أَحمِلُ عَلى رَأسِي زَهرَ الليمونَ عِقْداً و أُخبئُ فِي جَيبِي مِنهُ الثَمر .. ما تَعنِي بِلاجِئْ .. أهو المُهندِسُ الطَبيبُ الطَيارُ الذِي يُجيدُ صُنعَ الخِيامِ و تَرقيعِ السَماءِ.. و رَفعَ العَلَمْ ..؟

اقرأ لِي بلغَةٍ أَفهمُهَا فأنا لا أَسمَعُكَ ! عُذراً فقَد صَمَّ الرَصاصُ أُذنَيَّ وَ أَدْهَشَنِيْ الصَدى !

لَو غَنيَّتَ لِيْ تلكَ الأغنيَّةَ التي كانت تُهدِّئُ أمي من خِلالها بُكائِيْ ، .. أميلُ نحوَكَ كَي أستَزيدَ ، لكنَّك لَن تعرفَهَا ؛ تَحكِي عَن حَدائقَ وَردٍ و طَاووسٍ مُختالٍ بريشٍ من فَيروز .. يَمشِي مِثلي ، هَل تَعرِفُهُ ..؟

أكتُبُ لَكَ ؟ أَنَا مَنقوصَةُ الحَواسِ مُنذُ صَادَرتَها مِنيْ ، مُعَدَّلُ النَبضِ مُنخَفِضٌ و غيرُ منتَظِمٍ ، و البردُ متَردِدٌ من اختصارِ أزمَتِهِ فِي أطرافِيْ !

منذُ ارتفَعَ الضُوءُ أَعلَى مِني و أَنا لا أَجِدُ لِظِلِي مَنطِقْ ، فَكَيفَ أَرْتَادُ العُلُوَّ وَ الأَغلالُ تُمسِكُنِي من الخَاصِرَة !

النُجومُ تَقِفُ فَوقَ رَأسِي حَيرَى ، تَوَدُّ لَو تُقيمُ مَهرجانَهَا الأزلِيَّ فوقَ رأسِيْ .

عَبثٌ تُحاوِلُ استنطاقَ اسمِي ، قِراءَتِي سَهلَةٌ جداً لَو كُنتَ تُجِيدُ استعارَةَ العَدلِ مرَّة!

دَوِّن إفادَتِي في مَحضَرِكَ ؛

... يا أيُها الطَويلُ و المُخيفُ .. يا غَليظَ الصَوتِ يا واجِماً ! .. أنا بِنتٌ لَم تتجاوَز سَبعَةَ شتاءات ، مُتوَحِدَةٍ بِالنَظرَةِ المُوجِعَة ، قيلَ قَبلَكَ «الحِوارُ مَعها لمْ يَسر كَما يُراد .. فَحَواسُهَا مضطَرِبَة!».

وجاءَ كَلامُهُ أمراً ؛ «حاصِروا النجومَ عَن راسِها و اقطفوا الأفلاكْ ، أعِدوا لَها النارَ طَبقاً مُفْعَماً بالمَوتِ كَي تَنضُجَ ، واتركوهَا للصَقيعِ يَلُمُ احتضارَها وَيردِمْ رَمادَها !!».

أبحَثُ عن دِيوَانٍ يُنصِفُني ، أَقْرَأُ فِيهِ الفَرَحَ مَلاذاً و أقطِفُ منهُ عَناوِيني!

عَلَّ إجَابَةَ نُورٍ تَنبُضُ من بُركان أسئلَتِيْ .. و تُناديني!

عَن بُستانٍ سَورتْهُ فَراشَاتُ ربيعٍ و غَزلَت زَخارِفَهَا على جَبينِي ..

رِيحَانَةُ عُمرِي قَصَفها البَردُ قَبل أن تُبرعِمَ ، بيديكَ الدفءَ و السُكرَ ، زِد من غَزيرِ دَمعِكَ كَي تُناجينيْ !؟

أبحَثُ عَن أُمٍ تزورُنِي قَبل النوم و كُلَّ يومٍ .. لا تغادرُ شُرفاتِ عُمرِيْ ، لَو صادَفْتَهَا .. دَعها – يا قارئَ الصَفحاتِ - تُلاقِيني !

إن طَلَّ أبِي عليكَ ، و كان يحمِلُ غرسَ زَيتونٍ فَسَانِدْهُ ، قَد ضاقَ كاهِلُهُ و هوَ يحمِلُ البِلادَ في قَلبِهِ كَي يَحمِينيْ .

إني أبحَثُ عن بُرتقالَةٍ ضلَّت شَواطِئنا ، كيفَ أُشفَى مِن دَمعِيْ إن لمْ تُداويني!؟

و قرصُ الشمسِ الذي غاب خلفَ سِياجٍ حاصَرنا معاً ، فمَن أي جِهةٍ الشُروقُ بعدَكِ ؛ يأتينيْ ؟

× × ×

أمِيْ ، هَل هُمْ الشَيَاطينُ الذينَ أبدَلوا حُلمِيْ الوردِيَّ بالقَيدِ الشَائِكِ ؟ ما بِهم يَسرِقونَ الطُفولَةَ مِن رَصيدي و يَمنَحوني الكَوابيسَ ..؟

مِن أينَ أتَوا لِيَأخذُوا مَكانِيْ في صَدرِكِ و يُوسِعونَ قَلبكِ بالرَجيف..؟ أُمَّاهُ رُدِيْ عليَّ قَبل أن تَسْتَقِرَ الطَلقَةُ الرَصَاصيَّة في الجَبينِ ! و تَنحازَ السَنَابِلُ عن مَوطِئِ أَثَرِكِ ..

مَا عِلَّةُ هَذا الجُنديُّ ؟ يَحملُ رُعبَهُ سِلاحَاً لا أَعلَمُ ما اسمُهُ و يُوثِقُهُ في عَينيَّ شَبحاً بِعَينٍ وَاحِدة ..؟ أمِيْ ما قِصَّةُ هذا الحَرفِ المُتلعثِمِ مَنكِ ، وَ مَصدَرُ صَمتِيْ و عَتمُ الليلْ ؟ ضُميني ، ضَميني إليكِ ، قَبل أن يَلمِسَ ظِلِيَ هذا المِنجَلُ .. فأنا حافِيَةُ القَدمينْ !!

بعدَ سنينَ عَشَرةً ، التقط لي صُورَةً ، فَلْتَكُن مُلّونةً ، و أنا أحملُ مِلءَ يَديَّ برعُمَ لَيمونٍ يَمتَّدُ حتَّى طُولِيْ !

سَيكون عُمرِيْ حَصيلَةَ صَبرٍ ، أَكثَرَ من شِتاءٍ و أقَّلَ من رَبيعٍ ! و وَثيقَتِيْ اسمٌ نابِضٌ بالحُروفِ الرَنَّانة !

أَسنانيَ اللبنيَّةُ ضيَّعتُهَا كلَّهَا و أنا انتظِرُ شُروقَ الشمس ، لهذا لم أشبه الغَزالة في وَثبِها ! فلا تَطلُب مني الابتسامَ ..

مُنذُ البدايَة ، و أَنا أُعوِّلُ على النَشيدِ الآتي من البَعيدِ مَخرجاً لِصَدى الآه في صَوتِي ، لكِنَّ التَمَنِّي وَحدهُ لَمْ يُسَوِّغ لِيْ السَلامْ .. فصَمتُ !

فاضَ بِي الحَنينُ ، و أَنا أُهجِئُ اسمها فِي دَفتَرِيْ .. الحِبرُ تَقَمَصَ لونَ دَمِيْ ، و دُمُوعِيْ تَبعَتْهُ .

الفَاءُ ؛ فاتورَةٌ ، فَتْوَاهَا مَقصَدٌ مُباحٌ ، رَصيدُها الروحُ ، و سَدادُها قَلبٌ انفرطَ كالرَّمانِ فِي يَدهَا .. من الحُبِّ ، من فرطِ حُبي فَرطتهُ لَها !

اللام ؛ لا وَ لا و ألف «لا» بَعدَهَا ! لا لَن نُسَلِمُ غُصننا الأخضَر و لا نستسلِمُ ، لا ننحَنِي لا ننثَنِيْ ، لا ننكَسِر لا نستَتِرْ ! نحنُ ضَميرٌ عَلَنِيْ .

السين ، سِكينٌ سَتقسو ، سَطوةٌ سَطَت على سَطرِي فَسَطرتُ السُطورَ

سيرةَ سُمو و سَكتَة .

الطاءُ ، طائِرٌ حُرٌّ ، عنقاءُ تتضِحُ من عُمقِ الخُرافَةِ و تصعَدُ فوقَ رؤوسِكُمُ و تقتلِعُ النورَ من عيونِكُم ، و تَطفو .

الياءُ ، يَدِي المبتورَةُ ، و اليَسارُ من حُجرَةِ قَلبِيْ ، أو اليَمينْ !

النونُ ؛ نارٌ تفورُ .. نايٌ يُغنِيْ ، نوَارٌ يَسمو ، نحنُ نكتمِلُ ، ندورُ !

المَفاتيحُ خُدعَةٌ كَي نُغَادرْ ، و الأبوابُ أُسطورَةٌ تَمنَحُنا الأمانَ كَي ندخُلَ الموتَ آمنينْ !

خَسرتُ الرَصيفَ و الميناءَ منذُ أسدَلتُ شِراعِيْ ، و اتجَهتُ صَوبَ الوُعودِ ! لا مجالَ لاجتيازِ الموجِ و لا الكَلامِ ، في لَيلٍ صَدئَت أقدامِيْ و تَفَتت القَيدُ و سَلَّمتُ أمريْ للرَحيلْ !

إني نَذرتُ لِمقبَضِ الأبوابِ أَصابِعي ، لو تَرْضَاهَا و تُصافِحُ الحَياة في شِريانِيْ ، أَقبَلْ..

دَهشَةُ النوافذ تَزيدُ من هَولِ المشهَد ، فتَقِفُ الرياحُ صامِتَةً و تخجَلُ من بَردِ أعصابِيْ ، يَنحنِيْ الزَهرُ و يُقَبِلُ جُروحِيْ ، يَنامُ قُربَ النزفِ في رأسِيْ ، ينسَجِمُ و دوارَ الحركَةِ في مداريْ و لا يعتذِرْ .. يصنَعُ تاجاً من نوّارِه ، و يَميلُ نحوَ جَبهتِيْ !

ما كَلِمَةُ الدخولِ نحوَ الجَنة ..؟

تفاقَمَت الذاكِرَةُ و تداخَلت الصُوَرُ في مخيلَتِيْ ، ارتبك الصَحو من الغفوِ أيُهُمَا أثقَلُ عَليَّ !، تعَثرتُ بالمجرَّة التي ضاقَت أقمارُها عَليْ ، لجأتُ لأسندَ جدارَ البيت ، فرأيتهُ يَمنَحُنيْ وقوفاً لازماً ، متأزماً موقفُهُ في وَصفِيْ ، و أنا كالنَقشِ الموسومِ عليه .. أوسَدتُ عُمري لهُ و وَهبتهُ ظَهراً ! ، فَقَطَفَ من رأسيَّ الزَهرَ و الخَبرَ و ألحَقني بالمُودّعين ، و رُحتُ أكتبُ اسميَ على سَقفِ اللجوءِ .. فأسرعَ المطرُ يَمحوهُ و يطْمسُنا ! كِلانا نتجِهُ نحوَ ثُقبٍ رماديٍّ .. لا نهائيٍّ ، و ليسَ من صَوابٍ يَهدي عينَ الرؤى و يوَجِّهُ تُهمَة الغِيابِ ، تثاءَبَ في وَجهِيْ البَابْ ! فَصَفعتُهُ !!

لا تُسدِل جُفونَكَ يا بابُ ! لا تُرخِ مقبضَكَ ، فأني في أوجِ دفاعِيْ ، لا تُنازِع على أعتابِ القَصفِ ، صَوتُ صَريرِكَ يَجرحُ حُنجُرَتِيْ ! دَع الصُراخَ عليَّ .. و انتَظِرنِيْ !! مُثقَلا ناجَيتُهُ أن يَنتَظرني ، فأخبَرنِيْ .. أنني لا أملكُ بَصمَة ...!

لو أقاسمُك غُربَةَ الموقف ، و أحملُ عنك غرابَةَ الملامح ، و الحُزنِ النابتَ من خُطوطِ جَبهتِك ، لَو يُمكنني أن أحتضنَ الوَجعَ معك ، و أهدهدَ خوفَك .. لَو .. أغرسُ في قَلبك سُنبلَة ..
تجَمَلي يا صَغيرَتيْ بِحُلمك ، فما عادَ بإمكانِ الوَرد أن يتخطَّى ذُهولَك أكثَرْ .. نَما في يديك و أثمَرْ ..

خُطيْ بقدمَيك الصَغيرةَ -سَبعَ خُطواتٍ- فوقَ خَرائطِ البِلاد و سيِّجيْ نزفَ الخُطَى بالنَدى و اجتازيْ العِدا.. يا عُصفورَةً حطَّت على كَتفِ الزمان ، غَنيْ كَي نصحو و نَرُدَّ من خَلفك ..الصَدى .. ! أوكَلنا لكِ النشيدَ فاعتلي منصّةَ الحربِ و أَوردي الخَبرَ الذي نَقصدُهُ في مَسعانا إليك خِلالَ الأثير.. اجعلي صَوتَك أعلَى و أقوى من طُبولِ الدَربِ ، و وَثّقي تَسارُعَ النبضِ في صَدرك ؛ شُمُوخ ، فإنَّا اعتَزلنا الحَياةَ .. لَو صَمتي !

× × ×

صَمتي مَهدورٌ في المَدى ، أواسِيْ انهيار صَوتِيْ و أئِنْ ، ليسَ بِوسعِ السَطرِ أن يُنصِفَنِيْ ، و لا مجالَ لِبلادٍ أن تَكفيني حُدُودُهَا كَي أكتُبَ أسماءَ أطفالِيْ الذين غادَرونِيْ قَبل يَتخَرجوا مِنَ المَهدْ !

انفعالاتي تَخرجُ مني دونَ سَابِقِ بُكاءٍ ، و نزيفٍ مَضاعَفٌ لا تَسعُهُ «طَبريا» و لا ما يَحزَنونْ ، ابتهالاتي كَثيفَةٌ .. و ما تبقَّى مِن شَفيفِ رؤايَ نبضَةٌ فائِضَةٌ عن الحاجَةِ!

ما عادَ لِي قِنديلٌ أعلِقُهُ على سَقفِ أَمنِيْ ، ما عادَ فوقِي سَقفٌ كَي يَحمِلَ قِنديلي .. حَسبِي مِنديلي ، أصدُّ فيهِ الغارَةَ التِي تَتربَّصُ بِمَسمعِيْ ، و أُواري فيهِ دموعِيْ من عَينينِ اتعبَهُمَا الرَمادُ ، و أُخبِئُ صَوتِيْ منذُ أُصبتُ باضطرابٍ في الكَلامِ ، لِيَبقَى صَمتِيْ .. مَهدوراً في المَدى .. أخبِئُ قَلبِي بينَ يَديَّ فَلَمْ يَعُد يَتسِعُ في صَدرِيْ ؛ أضلاعِي مُشَوشَة ..!

× × ×

حَصاد الوَرد ،،

في الطَريقِ صعودٌ ، في بلوغِ الشمالِ ، و أفقِ المَدى .. لأعلى سَماءٍ ، معراجُ طفلَتِنَا نحوَ حُلْمٍ و نَجمةٍ ، و مَسارُها دروبٌ في المَجالِ ، مَتاعُها بَردٌ و بَسمة ، في ميلادِها وُسِمَ اسمُهَا في وَثيقَةِ رَبطَتها بالأرضِ إنسيَّةٌ اسمها «سَلامْ».

من «غزَة» هاشمٍ بدأت ، صَنعَت تاجاً من وردٍ لا يموتْ وَ تَكَللت بالزَهوِ ، زخرَفت مَسَارَهَا بالضوءِ و رَسمت خارِطَتَهَا على تُربةٍ حَمراءَ بُعودٍ من براعِمَ .. نحوَ الشمالِ ، صَعدَت نحوَ «القُدسِ» تسألُ عَن خَزَفٍ زاهٍ يليقُ بمراياها المُكتَنزةِ بالملامحِ ، سألت حَتى مالَ الخَطوِ بها نحو «الحرم الإبراهيمي» لتغفوَ وَقتَ صَلاةْ كَقطَةٍ آمنَةٍ من طَيشِ الصبيانْ .. قَفزَت طفلتُنَا «للرَملة»، التَقَت بِفَتىً وَسيمٍ بمثلِ عُمرِها .. يَبيعُ الصحُفَ ، سألتْهُ عَن نَجمةٍ تُنْظَرُ في وَضَحِ النَهارِ ..؟، فأعطاها جَريدةَ «فلسطينَ و الدفاع» ، فتحت صَفحة الأخبارِ و قرأتْ ... وُجهَتُهَا ، نالَ حِبرُ الصَحيفَةِ من يَديهَا

و لم يَكتُبْهَا خَبرْ ! ، فكان لصابونِ «اللّدِ» نَصيبُ الأميرِ الخَيالي لِينالَ وِصالَ يديها ..

دَللتْ خطوَهَا و رَقصَت ، على شاطئٍ من أزرقِ الرؤى .. صَرخت في المجالِ ، فحيَّاها بحارٌ و ملأَ جُيوبَها بالصَدَفْ .. عَروساً تَباهَت بخَطوٍ و مَيلْ .. تُباهي «يافا» ، دلالهُا أغنيَّةٌ و جمالْ ، صموداً نحوَ الجِبالِ ، مُروراً «بنابلس» و أسواقِهَا ، خبأتْ في جُيوبِ قَلبِهَا و حُجراتِهِ الحَلوَى ، وكَم زادَت نِسبَةُ السُكرِ في دَمها كَي تَزيدَهَا حَلاوة !

بقبضَةٍ واهِنَةٍ تسَّلقتْ سلالِمَ «حيفا» نحو «كرمَلٍ» من أخضَرِ الشَجر ، و كم طابَ لها أن تستريحَ تحتَ عُروشِ العنبِ في «الناصرة» ، رَفعت يَديها لتقطفَ قَمراً مكسورَ الوَجهِ ، فنورَّت ثمارُ «بيسانِ» و تغنَّت بعطرِهَا ..

مسارُهَا متعرجٌ ، شائكٌ .. و قَدماهَا طالَهُمَا من السَفرِ تعَبْ .. دَخلت غاباتٍ من بَلوطٍ مُتشابِكٍ ، فسيَّجَ أرضَهَا سنديانْ ! صَرخَتْ في التيْهِ و ثَقَبتْ عتمَ الليلِ .. نادَت حَتى طالَ صَوتُها أعلى من الضِفَتينِ ، و تَعِبتْ .

شَرِبَت من «طَبريا» حَفنَةَ صُمودٍ ، نَفضَتْ غُبارَ الطَلعِ عَن كَتِفَيهَا .. و أكمَلت الصعودَ أكثَر.. حاصَرهَا الشَجرْ ! الزيتون رسمَ دائِرَةً حولَهَا ، و البلوطُ أحكَمَ المتاهَةَ و انغَلَقَ حدَّ «صَفَدْ»..

أعلَى فأعلَى ، تسَلّقَتْ سَلالمَ من غَيمٍ خَفيفٍ كالقُطنِ .. كَم كان حَنوناً على قَدميهَا ، تَركَت لِكُلِّ غَيمَةٍ «برتقالَةً» كانَت مَلأت بها سِلالَهَا ، و رِسالَةَ شُكرٍ .. تهجأت الحروفَ حتَّى العَتبْ ، تهَيأت لتَكونَ ملاكاً ... و بدأ يتخَثَرُ فيها النَبضُ ، ارخَت جَناحَيهَا و أطلَقتْ زَفيراً أخير، .. و أسدَلتْ جُفونَهَا على الحُلم ، رَفعت يديهَا عالياً نحوَ السَماءِ .. أَسْلَمَتْ قَلبَهَا ، و انتهى السَفرْ!

عن الكاتبة :

ريم الكيالي كاتبة و روائية ؛ ولدت في الأردن عام ١٩٨٧ م .

بكالوريوس أنظمة معلومات حاسوبية من الجامعة الهاشمية.

خبيرة مصرفية في مجال الصيرفة الإسلامية و مراقبة و مدققة شرعية دولية / ايوفي .البحرين .

مدربة دولية في تطوير الذات و التفكير الإبداعي و البرمجة اللغوية العصبية.

عضو في اتحاد الكُتاب و الأدباء الأردنيين.

اصداراتها الأدبية :

«فاوانيا» ؛ نصوص أدبية نثرية أصدرت في عام ٢٠٢١ م .

رواية «وردة نقدية» ، القائمة الطويلة لجائزة معهد العالم العربي للرواية / باريس ٢٠٢١ م .

رواية «الريم» عن دار جفرا ناشرون و موزعون ٢٠٢٢ م .

إذاعياً عبر أثير إذاعة سقيفة المواسم الأدبية :

برنامج فاوانيا ، قراءة أدبية في كتاب فاوانيا.

برنامج مسيرة ورد ، مقابلات أدبية .